

د. عبد الرحمان خواجه

ليال بلا قمر



مذكرات عائد من معتقلات
درب مولاي الشريف . أكدز و قلعة مكنة

د. عبد الرحمان خواجه

ليال بلا قمر

مذكرات عائد من معتقلات
درب مولاي الشريف . أكدز و قلعة مكنة

إلـلـروح كل من سبق في الضلـام ، وزج به في الضلـام ، و بات يعاني
من البـصـر والظلم والقهر والحرمان ، حتـمات في الضلـام ، فرمى به في حفرة
مـبـيـقة ومـلـح الضلـام .

إلـلـروح علـلـا " الجنـدي المعلوم " ، الذي كان الإيثـار شيمته ، و كان
التمرد علـلـا الجور شـكـيمته ، فـضـحـه بـكل شـيـء في ضروف " يفر فيها المرء من أمه
و أبيه " ، من أجل أناس كان أغلب الضـ أنهم لم يعولوا يومـا إلـلـالنور ، ليشهدوا
له بالعرفان ، فيجازوا الإحسان بالإحسان .

إلـلـروح المناضل الكبير ، والـصـديق العزيز : " الحسن مـتـيق " ، الذي
كنت أتمنى أن يكون من أوائل المصلحين علـلـا هذا العمل المتواضع قبل نشره ،
لكن يد المنون أبـت إلا أن تغيبه عن الأنظار ، و تخـفـفه حـون سابق إنكار .

مقدمة

لطالما راودتني فكرة الكتابة عن تجربة السجن التي عشت أطوارها ، وقاسيت مرارة أيامها و لياليها . فقد حاولت منذ السنوات الأولى من خروجي إلى الحياة من جديد ، أن أكتب شيئاً عن تلك المعاناة الطويلة ، لكن الشروط اللازمة لذلك لم تكن متوفرة . فقد وقفت عوائق كثيرة ، حائلة دون ذلك المشروع الذي ظل عالقا بالذاكرة حتى إشعار آخر ...

كان لاصطدامي بواقع تميز بالقساوة و الإحباط ، وقع شديد على نفسي ، جعلني أشعر في البداية و كأنني غريب في مجتمع يكاد يلفظني كما يلفظ البحر جثة الغريق ...

و لما اتخذت من العودة إلى الدراسة ملجأً ألوذ به من شبح الفراغ القاتل و القلق المميت ، اضطررت أن أوجل الفكرة إلى حين . و جاءت بعد ذلك مرحلة الانخراط في مجال العمل و بناء الأسرة ، لتأخذ نصيبها من الوقت و الانشغال ... لكن العائق الأهم من كل هذا ، كان يتمثل في الشعور بالتضايق و انعدام الحرية ، التي هي " فرض عين " في كل كتابة و تعبير ...

أما و قد أصبح الخوض في مواضيع " سنوات الجمر " أمراً متاحاً ، بل أصبح مطلوباً في إطار " حفظ الذاكرة " ، فقد تهيأت لي فرصة الإسهام بهذا العمل المتواضع ، الذي أروم من خلاله أن أصور بعض ما مورس على المجموعة التي كنت أنتمي إليها ، من أساليب التعذيب و الحرمان .

و لا أدعي أنني أحطت بكل فصول تلك المأساة الطويلة ، و لكنني حاولت قدر الإمكان أن أرسم أهم ما طبع ذاكرتي من أحداث و مشاهد ، مع حرصي الشديد على صدق المشاعر و استقلال الرؤية .

الجزء الأول
بين درب الشريف و قصر الباشا

أم الليالي

لم تكن تلك الليلة في ظاهرها سوى ليلة كسائر الليالي .
إلا أنها كانت ليلة بلا قمر ! .. موقعها في تاريخ الميلاد هو السابع عشر من
مارس ، من السنة السادسة والسبعين في القرن العشرين . لكن وقعها في
ذاكرتي لم يكن يعد بالساعات ، وإنما بالشهور ، ولربما بالسنين ! ..
كنت قد لبست ثياب النوم و استلقيت على السرير ، رغم أن الساعة لم
تعلن بعد التاسعة مساء ! قررت ذلك على غير عادتي ، إذ تعودت أن أسهر
مع الأصدقاء حتى وقت متأخر من الليل .. تركتهم في الغرفة الأمامية
يتفرجون عبر التلفاز على مباراة لكرة القدم ، وآثرت أن أخلو إلى المذيع
عني أسمع أخبارا جديدة . أخبار جديدة ؟ نعم ! لقد تسارعت الأحداث في
تلك الأيام بشكل مثير في الصحراء !

كان لصدور الحكم الاستشاري لمحكمة العدل الدولية
«بلاهاي» ، دور أساسي في تحريك تلك العجلة التي باتت تدور بسرعة
الضوء .. أعلنت المحكمة أن المغرب لم تكن له سيادة على الصحراء ، ولا
للمجموعة الموريتانية أيضا . لكن المملكة المغربية اعتبرت أن « لاهاي »
أنصفتها إذ أقرت بوجود روابط بيعية بينها وبين بعض القبائل ... قرر الملك
الحسن الثاني يوم السادس عشر من أكتوبر لسنة 1975 تنظيم مسيرة
نحو الإقليم. وجند من أجل ذلك مئات الآلاف من الرجال والنساء .

و شاءت الأقدار أن يكون « الجنرال فرنكو » الذي حكم إسبانيا بقبضة من حديد ، على فراش الموت ' وهو الذي كان يهيء لإنشاء دولة تابعة للكيان الاستعماري بالمنطقة . توفي الجنرال في تلك الأيام ، تاركا الحكم للملك الشاب « خوان كارلوس » الذي لم يرد أن يبدأ توليه بمغامرة غير محسوبة العواقب ..

دخل الأطراف الثلاثة إذن - المغرب وموريتانيا من جهة ، وإسبانيا من جهة أخرى - في مفاوضات سريعة تسابق الزمن ، تمخضت عنها الاتفاقية الثلاثية الموقعة « بمدريد » في الرابع عشر من نونبر من تلك السنة . كل ذلك تم وراء ظهر جبهة « البوليساريو » الحركة الفتية التي برزت منذ مايو 1973 ، معتمدة على الكفاح المسلح من أجل تحرير الإقليم من الاستعمار ، والتي بدا أن بروزها لم يرق لأي من اللاعبين الآخرين . لم تقف الجبهة وقفة المتفرج على الأحداث ، بل بادرت بإعلان قيام « الجمهورية الصحراوية » غداة دخول الاتفاقية المذكورة حيز التنفيذ ، أي يوم السابع والعشرين من شهر فبراير 1976 ، وذلك ببلدة « البير لحلو » التي سبق أن حررتها خلال حربها ضد الإسبان .

كنت أفكر في كل هذا وأنا أصغي إلى برنامج « الساقية والوادي على طريق الحرية » من الإذاعة الليبية ، و الطفل « عماد » - ابن الجيران - يترنح في خطاه الأولى بالقرب مني ، وكنت منشغلا بالأنباء المتواترة عن حملة الاعتقالات الواسعة التي شملت العديد من المدن والبوادي في الجنوب . وإذا بباب الغرفة يفتح ، ويطل منه شخص غريب ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، يلبس معطفا كبيرا أسود :

– ماذا تفعل يا « عبد الرحمان ؟ »

تبادر إلى ذهني بداية أنه أحد معارف صديقي « أنور » ولكن نبرة سؤاله

الجامدة تسربت إلى نفسي كجرعة السم القاتل .وبينما أنا أتهياً للنهوض من مكاني ، دخل شخص آخر ، نقيض لصاحبه في كل شيء : قصير القامة ، سريع الحركة ، خفيف كالريشة في مهب الريح . لم يلق حتى السلام . بل بدأ لتوه يعبث بكل شيء كالزوبعة . ألقى الملابس والكتب و الفراش وهو يفتش بعناية في باطن الأشياء . حتى مقلمة أنور شتت أقلامها وقلبها من الداخل ثم صاح في وجه صاحبه :

– أنظر ماذا كتبوا هنا : « عميل الامبريالية والاستعمار » !

أجابه صاحب المعطف الكبير ببرودة ظاهرة :

– وماذا في الأمر ؟ إنهم طلبة جامعيون !

ثم التفت الي وقال :

– أتدري لماذا جئناك يا عبد الرحمان ؟

و استطرده قبل أن أجيبه :

– لقد بلغتنا شكوى من صديقتك التي تزورك هنا . إنها تدعي أنك اعتديت

عليها . لذلك فالمسؤول يطلبك لبضع دقائق!

شعرت في تلك اللحظة وكأن طعنة سكين تنغرز في صدري . لقد فهمت

من تلك الجملة السخيفة كل شيء !

أخذت أتهياً لألبس أكبر قدر من ثيابي . وتذكرت جلبابي الذي

تركته في بيت خالي بضاحية الرباط . قلت للضابط :

– أريد أن يأتيني أحد الأصدقاء بجلباب .

– لا ، لا داعي . ستعود الليلة أو غدا على أبعد تقدير .

لماذا الجلباب ؟

لكن « محمدا » هب من مكانه مستأذنا :

– أريد أن آتية بجلباب من فضلك. إن شقتي ها هنا ، في العمارة المقابلة .

و فعلا ، جاء محمد بذلك الجلباب الأحمر .. لبسته وأنا متجه نحو الباب ،
وتذكرت أنني لا أحمل درهما واحدا في جيبتي ، فالتفت إلى « أنور » سائلا :
- أليديك شيء من النقود ؟

أدخل يده في جيبه وأخرج خمسة وعشرين درهما هي كل ما كان يملك !
نظرت إليه مودعا ورمق إلي بدوره وهز رأسه ، وخطفت النظر إلى الأصدقاء
الجالسين في وجوم ، ثم خرجت مرفوقا بزواري الذين أصبحوا أربعة بدل
اثنتين ! . الظلام دامس في الزقاق . حتى المصاييح لم تكن مضيئة ، كأن
القدر تعمد أن تمر عملية الاختطاف في سواد مطبق !

دفعوني في هدوء داخل سيارة صغيرة من نوع « سيمكا 1000 »
صفراوية ، ليس « فاقعا لونها » ، ولا هي « تسر الناظرين » . بل أصبحت
تميل إلى لون التراب لما مر عليها من عوامل التعرية . ومع ذلك لا زالت
تحمل علامة ٧٧ في لوحتها الخلفية .. كنت أجلس في الخلف وإلى جانبي
الرجلان اللذان ظهرا بعد مغادرتي للشقة . كلاهما يلبس جلبابا غليظا من
الصوف ، ويضع على رأسه قبعة تغطي أذنيه . و ما أن تحركت السيارة حتى
التفت إلي ذلك الشخص الذي آثر أن يتصرف تجاهي بعدوانية صريحة منذ
الوهلة الأولى :

- ستوجهنا الآن إلى المكان الذي يسكن به « بلال » .
رد عليه صاحب المعطف وقد أخذ المقود ، كأنهما اتفقا أن يخطئ الأول
دائما ، فيصح له الآخر :
- ليس بلال ، بل « بلالي محمد فاضل » .

كنت أعرف أن بلالي ذهب إلى العيون لزيارة والدته التي لم يرها
مند سنوات ، بحيث كانت الحدود شبه مغلقة بين المغرب والصحراء زمن
الاستعمار الاسباني . ذهب بلالي إلى هناك ، و من ثم التحق بالجبهة مع

مئات الأسر التي انسحبت غداة الإعلان عن الاتفاقية الثلاثية . كنت أعرف هذا ، لكنني فضلت أن أجيب الرجلين أنني لست أدري أين أصبح يسكن محمد فاضل ، إذ افترقنا منذ سنة أو أزيد ، وانقطع الاتصال بيننا بحيث لم نكن ندرس في نفس الكلية .

– إذا كنت لا تريد أن تدلنا على صاحبك ، فسنضطر للذهاب بك إلى المفوضية حتى يقرر المسؤول في أمرك .

هكذا قال لي السائق و هو يعرج إلى اليسار متظاهرا بالتأسف على الاضطرار لتقديمي إلى المسؤول . و كأنه نسي أن هذا الأخير طلبني في موضوع الفتاة التي « تعسفت عليها ! » ..

وقفت السيارة أمام المفوضية المركزية . و ما أن ولجت بابها الرئيسي حتى انتابني شعور عميق بالضيق والاختناق . شعور مؤلم بالخروج من عالم الحرية والكرامة، إلى عالم الحرمان والمذلة والمهانة .. وداعا أيتها الحرية الحبيبة ! وداعا يا ساحرة القلوب الولهى ، يا من تغنى بك الشعراء و روى عنك الكتاب والمفكرون ، و قضى من أجلك الشهداء والمناضلون ! كان صاحب المعطف قد أمسك بيدي كالصديق الحميم ، ومشى بي في ممر صغير وقفنا في نهايته على شرطي يجلس فوق كرسي ، وأمامه طاولة صغيرة . فتح الرجل سجلا بين يديه ، وأخذ مني بطاقة التعريف ونقل منها اسمي وعنواني ، ثم قام من مكانه بعد أن انصرف صاحبي ، وقادني حتى وصلت إلى باب حديدي ، فتحه بعنف ودفعني داخل الزنزانة ، ثم أغلق الباب من خلفي .

وجدت نفسي وسط مجموعة من خمسة أفراد لم يكادوا يعيرون اهتماما لقدمي . فقد كانوا غارقين في أحاديث ثنائية عادية تماما ، كأنهم جالسون في أحد المقاهي الهادئة يحتسون كؤوس الشاي أو القهوة !

و ما هي إلا بضعة دقائق، حتى فتح الباب وأطل منه الشرطي مشيراً إلي بالوقوف . خرجت من الزنزانة و توجهت بصحبته إلى الممر القريب ، ثم صعدنا إلى الطابق الأول حيث كان صاحب المعطف ينتظرنا في أحد المكاتب . أخذ يسألني عن كل ما يتعلق بشخصي ويكتب في مطبوع أصفر ، حتى إذا انتهى من تدوين تلك المعلومات ، تطرق من جديد إلى السؤال عن « محمد فاضل » ، لكنه لم يجد مني جواباً شافياً ، سوى أنني لا أعلم عنه شيئاً . أوماً إلى الشرطي أن يأخذني إلى مكاني ، فرجعت إلى الزنزانة وجلست بالقرب من أحد الأشخاص الخمسة . كان رجلاً قصيراً القامة ، نحيل الوجه ، يناهز الخمسين ، لا يمل من الكلام وهو يخاطب شخصاً آخر بجانبه، و لا يتوقف إلا حين تباغته موجة من السعال الكثيف ، يتوجها ببصقة كبيرة في وعاء مطاطي صغير لا يبرح يده . و كان في بعض الأحيان يطلق ضحكة مثيرة تكشف عن لثة عارية من الأسنان . نظر إلي بنوع من الإزدراء و قال :

– أنت أيضاً أتوا بك إلى هنا ؟ أين أمسكوا بك ، في الحانة أم في الشارع ؟ قلت له :

– لا ، بل أمسكوا بي في شقتي .

– و من أنت حتى تكون لك شقة ؟! (تساءل الشيخ في تعجب)

أجبتُه أنني طالب جامعي .

– آه ، أنت طالب ، إذن لم تكن سكران مثلنا ، و أين ذهب بك الشرطي قبل قليل ؟

حكيت عليه أنني صعدت إلى الطابق الأول ، و أن الضابط استجوبني . عندها هز رأسه ملياً ثم همس في أذن صاحبه :

– القسم السياسي !

ثم حدق إلي وقال :

- يا ولدي ، إن الذباب لا يدخل إلى الفم المسدود !
و عاد إلى صاحبه يحدثه و تركني أتجرع علقم أول ليلة أفضيها وراء
القضبان ، بعيدا عن أنوار الحياة و بهجتها ، و هي لا تفصلها عني إلا بضعة
أمتار . وتذكرت قول الشاعر في رثاء ابنه :

« طواه الردى عني فأضحى مزاره

بعيدا على قرب ، قريبا على بعد ! »

شرعت أتفحص الزنزانة وجدرانها ، وقلبي يكاد ينفطر من الحزن
و الألم . مساحة الغرفة مربعة الشكل ، لا يتعدى الضلع فيها ثلاثة
أمتار . لا وجود فيها لأي فراش. في إحدى زواياها يوجد كنيف عار لمن أراد
أن يقضي حاجته . و هناك أبواب ينحدر من الحائط صوب الثقب ، وينصب
منه الماء من حين لآخر ، محدثا صوتا مزعجا ومثيرا للتقزز، لا علاقة له
بالطمأنينة التي يبعثها خرير المياه في الحياة الطبيعية ! .. أما الجدران
فقد كانت متسخة بما فيه الكفاية . وقد تخللتها كتابات بذئنة في الغالب ،
خطت بحروف لاتينية، ورسوم معبرة هي أيضا عن واقع فظيع . فهناك مثلا
صورة قملة سمينة انتقلت من جسد آدمي ، بعد أن تركته عبارة عن هيكل
عظمي خائراً! كل هذه الرسوم والعبارات ، زادها بشاعة كونها لم تكتب
بالممداد الطبيعي ، و لا بالصباغة الزيتية ، و لا حتى بالفحم ، و إنما كتبت
ببراز البشر ! لم أنتبه في البداية لهذا الأمر، حتى إذا بذاكرتي تسبح في
عالم الكتابة على الجدران ، حيث يعبر البعض عن مشاعرهم إزاء آخرين
يحبونهم ، فيرمزون إلى ذلك بعبارات عاطفية مألوفة ، أو بصور القلب

المصطلح عليها ، و قد يصيبه سهم فتاك فيجعله داميا جريحا ! .. وآخرون يكتبون أسماء يكرهون أصحابها ، فيذيلونها بكلمات وأوصاف لا تروق و لا تليق .. وهناك من يلجأ إلى الكتابة في المراحيض ، مغتنما فرصة الخلو إلى الذات ، لإفراز ما تكنه خاطره من أحاسيس وأفكار . و قد يميل هذا الصنف الأخير إلى التخصص في أمور السياسة ، ليعبر عن تدمره وسخطه على الأوضاع ... كل هؤلاء وأولئك لم يكونوا يعدمون وسائل للكتابة ، بل دأبوا على استعمال شتى الأدوات والألوان . حتى النقش على الحيطان والأبواب الخشبية كان من الأسباب المتاحة ... و عاد بي التفكير إلى اللوحة المرسومة أمامي . فإذا بي أطرح السؤال عن الوسائل المتوفرة للكتابة ها هنا ، و أمعن النظر في ذلك اللون الغريب . فهو يميل إلى الصفرة بالنسبة للرسم التي تبدو حديثة العهد ، بينما ينحدر إلى السواد كلما أصابها التقادم . و ما أن أيقنت من طبيعة الأداة المستعملة ، حتى خيل إلي أن أنفي امتلأت بتلك الرائحة الكريهة ! وبدأت أشعر بدوار شديد ، ثم بصداع مميت في رأسي ، ثم أحسست بالغثيان !..

كان لا بد أن أستفز كل قواي في تلك اللحظة العصبية ، و ألا أستسلم للانهازام منذ الليلة الأولى . قلت لنفسي :

– كيف ؟ أتدعن للإنهيار بهذه السهولة ؟ أليس السجن معقلا للأحرار ؟ ألا يشرفك أن تلتحق بركب النضال وراء الأسوار ؟ انهض فالمشوار طويلا ، و هذه مجرد بداية . عول على الكثير ، و تحمل الاعتقال بما يليق من صمود و تحد ، وإلا سقطت في مزبلة التاريخ مع الجبناء والتافهين !

اقتربت من ذلك السجن الذي ما فتئ يلقي خطابه الطويل ، فحاولت أن أقاطعه بالسؤال :

– منذ متى وأنت هنا ؟

فأشار إلي أنه يقضي ليلته الخامسة عشرة ، و أنه لا مانع لديه أن يمدد الإقامة إذا اضطر إلى ذلك . و أطلق ضحكته الممزوجة بالسعال . ثم سألته ما إذا كان يسمح لهم بالخروج إلى الشمس خلال النهار . قال لي إنهم يخرجون كل صباح لاستنشاق الهواء في حديقة صغيرة معشوشبة ، يوجد بإحدى جنباتها مقهى يعد القهوة والشاي وشتى أنواع المشروبات الغازية، والخبز والمربى والحلويات ... قلت لنفسى وقد صدقته بسذاجة غبية :
- أرايت ؟ ليس الأمر بكل هذه القتامة !

كان باب الزنزانة يفتح بين الفينة والأخرى ، ليدخل منه ضيف جديد ، حتى وصل عددنا حوالى العشرة . بدأت الغرفة تضيق ، وبدأت حرارتها ترتفع بفعل الازدحام والتعرق ، علاوة على الحرارة التي يبعثها المصباح الكهربائي فوق رؤوسنا . كل ذلك زاد من توتري و إحساسي بالضيق الشديد . لكن ، ماذا عساي أن أفعل ؟ كان آخر القادمين شاب التحق بالجامعة في الثانية صباحا . اقترب مني وحياني فحييته ، وبدأ الحديث عن الهوى . عرفت أنه طالب في كلية الحقوق ، وأن الدورية قبضت عليه و هو يعبر أحد الشوارع . أخذنا إحدى الزوايا في الزنزانة ، وبدأنا نتحدث و قد تمددنا على الأرض و توسدنا أحذيتنا . طفق يسألني عن أمري ، فوضعتة في الصورة ، قائلا إنني لا أعرف بالضبط لماذا تم اعتقالى ، لكنني طالب من « الجنوب » ، و قد يكون ذلك سببا كافيا للقبض علي في إطار الحملة العشوائية التي شملت الكثير من أبناء الصحراء . أبدى لي الشاب تعاطفا كبيرا ، لكنه لم يخف تخوفه من خطورة الموقف الذي وقعت فيه . و أعلن استعداداه لمساعدتي في أي شيء يستطيع القيام به . شكرته كثيرا على طيب مشاعره ، وقلت له :

- لا أرى حاجة إلى شيء سوى إخبار أسرتي ، لكنهم سيعلمون عن طريق

الأصدقاء ...

مضت تلك الليلة الطويلة القاسية و لم تغمض لي جفون . و لما كانت الساعة الثامنة صباحا ، أطل الشرطي من كوة الباب ، و بدأ يرمي علينا قطع خبز باردة ، يابسة ، صلبة كالحجارة . التفت إلي الكهل و قال لي :

– خذ خبزتك ، فإنك ستحتاج إليها خلال النهار ، و إياك أن تصدق ما قلته لك البارحة عن الحديقة و العشب و الجبن و المربى ! أما هؤلاء (وأشار إلى الأشخاص الآخرين) فسينصرفون جميعهم بعد ساعات .

رحلة " الدرب "

و فعلا ، فقد شرع الشرطي ينادي من حين لآخر فيخرج أحدهم ، حتى بقيت لوحدي في تلك الغرفة الكئيبة . وفي الحقيقة ، قد وجدت بعض الارتياح في خلو المكان ، خاصة وأني لم أكن أجروء على الذهاب إلى الكنيف المكشوف على مرأى من الآخرين ، رغم أن الشيخ قدم لي درسا تطبيقياً قبل مغادرته ...

مرت الساعات ببطء مخيف ذلك الصباح . كان الصمت الرهيب يخيم على الزنازن و هي فارغة ، إلا العنبر المقابل . فقد كنت أسمع بين الفينة والأخرى صوتاً قادمًا من هناك ، يشبه الهذيان . قمت من مكاني و توجهت نحو الباب و أنا أمشي بحذر شديد ، مخافة أن أثير انتباه الحارس الجالس على كرسيه في إحدى الزوايا .

أخذت أطل " بنصف عين " من الكوة ، فإذا بي أرى رجلاً بين العقدين الثالث و الرابع ، يكاد يخرج رأسه من ذلك المنفذ الصغير . تذكر ملامحه ببلاد الهند وباكستان ، حيث البشرة السمراء والشعر الأسود الناعم . كان ينطق بلغة غريبة تؤكد أنه غريب الدار ، لغة مشحونة بنبرات الاستجداء والتوسل . غير أن الشرطي لم يكن يعير لكلامه كبير اهتمام ، وإنما كان يرسل من حين لآخر عبارة سب من بعيد ، حتى إذا " نفذ صبره " أتى إليه مسرعاً و دفعه بملء كفه على الوجه دون عطف ولا شفقة ! تكرر المشهد

مرات عديدة ، حتى بدا لي أن الرجل مختل عقليا ، و لم يعد يدرك عواقب الأشياء ... عدت إلى ركنتي و تسمرت بها و قد ملأني حزنا ما رأيته و سمعته . و ظللت أترقب المجهول غير عابئ بالجوع الذي بدأ يطرق الأبواب علي بالحاح متزايد ، حتى كانت الساعة الخامسة بعد الزوال . جاء صاحب المعطف مرة أخرى و أمرني بالخروج . مشيت خلفه حتى اقتربنا من باب المفوضية ، فإذا برجل أصلع ينتظرنا عند مؤخرة سيارة R4 مصفحة كالصندوق . أشار إلي بالصعود من الخلف ، فأغلق باب السيارة وصعد إلى الأمام بجانب الضابط الذي أخذ المقود كعادته ، ثم تحركت السيارة ...

كنت أرى من خلال قبعة الجلباب التي غطيا بها رأسي و وجهي . فقد خرجنا من « باب الرواح » ودخلنا إلى « شارع النصر » ثم عرجنا على « شارع الحسن الثاني » و توجهنا إلى طريق الدار البيضاء . بدأت الرحلة نحو المجهول ، وبدأ الشعور بالغبن يعصر قلبي ، فترددت في ذهني صيحات مجموعة « ناس الغيوان » وهي تقول تارة :

« - فين غادي بي خويا فين غادي بيا ؟ »

و تارة تقول :

« - قلبي جا بين ، يدين حداد ، حداد ما يحن ، ما يشفق عليه ! » ...

و طفقت أسائل نفسي :

« - إلى أين سينتهي بي المطاف يا ترى ؟ و هل سأعود يوما إلى الحياة

الحرّة ؟ وماذا ينتظرني من عذاب ومعاناة ؟ ... »

بدأت أذكر إخوتي و أبي وأتخيل كيف سيتلقون الصدمة ، وأذكر

أصدقائي بشوق كبير ، و كأن العهد بهم أصبح بعيدا بعيدا !. و فجأة توقفت

السيارة ، و رأيت الرجلين يتحاوران بإشارات لم أفك رموزها . بعدها نزل

صاحب المعطف و فتح الباب الخلفي و قال لي :

– أدخل يديك في فجوتي الجلباب !

تملكني رعب شديد ، إذ تبادر إلى نفسي أنهما سيقومان بقتلي في هذا المكان الخالي، بعيدا عن الأنظار ! « و إلا لماذا يتوقفان بي هكذا في منتصف الطريق ؟! » توسلت إلى الرجل أن يتركني ، فنهزني بصرخة غاضبة :

– لماذا لا تسكت ؟ ماذا تظنني فاعلا بك ؟ هات يديك وإلا قطعتهما لك !
هكذا تحول الضابط في لحظة واحدة إلى حيوان متوحش ، و هو الذي كان يبدو هادئا منذ ليلة البارحة ! مددت يدي داخل الجلباب ، فشدهما بذلك القيد الحديدي الذي طالما سمعتهم يتحدثون عنه منذ أيام « جيش التحرير » دون أن أراه .

إنه « رقم 5 » كما دأب العامة أن يعرفوه ... واستأنفت السيارة رحلتها في اتجاه « الدار البيضاء » .. وصلنا إلى المدينة ، وبدأنا نشق شوارعها الطويلة ، حتى توغلنا في المناطق الآهلة ، حيث حركة السيارات كثيفة ، والعمارات مزدحمة ، والضجيج متصاعد .

توقفنا أخيرا عند حاجز أمني يحرسه شرطي . تقدم هذا الأخير لتوه نحو السيارة ، و انحنى على السائق الذي قال له بصوت خافت :
– نحن قادمون من الرباط .

رفع الشرطي الحاجز ، و تقدمنا داخل ساحة مفروشة بالحصى .
أنزلني الرجلان و قاداني إلى أن ارتقينا خمسة أدراج أو ستة ، ثم ولجنا إلى فناء مكسوة أرضيته بالفسيفساء . و جهني صاحب المعطف جانبا ، و دفعني نحو الحائط بغلظة ظاهرة حتى أوقفني و جيني يلمس برودة الجدار . ثم عصب عيني بخرقه خضراء سميكة، و رد القبعة على رأسي . كانت الجلبة كبيرة ، كأنك في أحد الأسواق الشعبية ، حيث الباعة يتنافسون في إشهار منتوجاتهم والشراة يتزاحمون لاقتناء ما يطلبون . و كنت أسمع كلمات

غريبة : « إكستريل ، بول ، تشانكلي ، ديزويت ..» و ما هي إلا لحظات ، حتى سمعت وقع خطوات وثيدة تأتي من بعيد تقترب نحوي شيئاً فشيئاً. و امتلأت أنفاسي برائحة عطرة قوية . ثم شعرت بأشخاص يقفون وراء ظهري . أدارني صاحب المعطف نحوهم بعنف ، ونزع القبعة عن وجهي و سمعته يتمتم :

– هذا « فلان » يا سيدي . أما الآخر فلم نمسك به بعد .
ثم رد القبعة على رأسي من جديد ، و ولى وجهي إلى الحائط ، و سمعت خطواتهم تبتعد في انتظام . و جاء صاحب المعطف ليسحب قيده هذه المرة ، و ليهمس في أذني بنوع من التودد:

– وداعا يا عبد الرحمان ، اصبر ، و كن رجلاً . إن أبناء الجنوب رجال أشداء !
و ما أن غادر المكان حتى تسلمتني يد قوية من ذراعي دون كلام و جرتني إلى مكان قريب و أجلسني على الأرض . كانت الجلبة تخبو هنيهة ، ثم تعود بحدة متصاعدة . رباه ما هذه البئر السحيقة التي وقعت فيها! أيصح أن أعيش وسط هذا الصخب و عيناى معصوبتان ؟ و تذكرت العميان الذين حكمت عليهم يد القدر بالعيش في عتمة دائمة ، في خضم الحياة ! قلت في نفسي :

– ما أعظم العميان و ما أقوى عزيמתهم !
أحسست بكماشة الجوع تشد بطني بقوة ، فهممت أن أنادي على أحدهم ليأتيني بشيء من الطعام . لكنني ترددت في صيغة الطلب . هل أقول « يا سيدي » ؟ هل أقول « يا شرطي » ؟
و من قال لي إنه شرطي ؟ هل أقول « يا حارس » ؟ و أما إذا لم تعجبه هذه التسمية ؟ و ارتأيت في الأخير أن أخاطب نفسي حتى لا يلومني أحد !
وضعت يدي على بطني وقلت :

- آه ، منذ أكثر من أربع و عشرين ساعة لم أذق الطعام ، و لا حتى الشراب !

و كان الجواب سريعاً : فقد انهالت علي ركلة عنيفة أدارتني بتسعين درجة !

- من أذن لك بالكلام يا كلب ؟ أتظن نفسك في الشارع ؟ إن الكلام محظور !

حبست أنفاسي و صعدت من عمق صدري حشجة طويلة كدت بعدها أن أجهش بالبكاء ، إذ شعرت بضيم شديد ! ولكن ما فائدة البكاء في هذا المكان ؟ و هل يسمح به حتى ، ما دام نوعاً من الكلام ؟!

رغم هذا رأيت صحناً معدنيا صغيراً ينزل أمامي كأنه يهبط من السماء . و سمعت صوتاً يقول :

- كل ، تأكل السم !

كان في الصحن محتوى علبة من السردين و قطعة خبز . ثم سقط كوب معدني به ماء . شربت الماء في جرعة واحدة ، و أخذت مضغعة خبز أغمسها في السردين . و لكن الحارس أوقفني بعنف شديد و أمسك معصمَي و مضى يهرول بي حتى أدخلني في مكتب يؤدي إليه ممر طويل . أجلسوني على كرسي خشبي صغير ، و صاح في وجهي ذلك المسؤول الذي عرفت في ما بعد أنه عميد مشهور ، تميز بباعه الطويل في مجال التعذيب والبطش و التنكيل :

- ما اسمك ؟

- عبد الرحمان .

- من أين أتيت ؟

- من كلميم .

- سنحفر لكم حفرة ونردمكم فيها أحياء أنتم أبناء كلميم و طنطان . و أين تدرس ؟

- في كلية الطب بالرباط .

- و من يعطيك المنحة ؟

- الدولة .

- أليست الجزائر ؟

- لا .

- و لماذا تعبد الجزائر يا لئيم ؟

- لا علاقة لي بالجزائر يا سيدي .

عندها لكمني أحد معاونيه على بطني حتى وضعت يدي من شدة التأثير ، ثم نزل علي بصفعة حادة في الوجه حتى سمعت رنينها في أذني .

- هل تعرف « الولي » ؟

- لا .

- هل تعرف « أحمد محمود » ؟

- لا .

و استمر يسرد الأسماء دون أن يتيح لي مجالا للجواب . و ختم اللائحة باسم « محمد فاضل » .

قلت له إن هذا الأخير كان يسكن معي فعلا في السنة الماضية ، لكننا افترقنا و لم أعد أراه منذ ذلك العهد . قال العميد مختتما الجلسة :

- هؤلاء الأشخاص كلهم موجودون عندنا ، و إنهم تحدثوا عنك ، وإذا لم تعترف غدا فسوف أسلخ جلدك !

عاد بي الحارس إلى مكاني . و كم كانت صدمتي قوية لما رأيت أن صحن السردين قد اختفى تماما ! كنت أتمنى أن أسد به رمقي رغم كل

الإجباط الذي خلفه في نفسي أول لقاء مع « ملك الدرب »! جاء الحارس مرة أخرى ، فجرني إلى غرفة قريبة . هناك وجدت شخصا أمرني أن أنزع ثيابي ، وناولني قميصا وسروالا من « الكاكي » ، لبستهما بسرعة ، وأحكم على زندي قبضة قيد الحديد ، ثم بدأ يقرأ علي النظام الداخلي للمؤسسة :

– الكلام ممنوع ، الحركة ممنوعة . إذا حاولت أن تزيل العصابة أو تخطف الرؤية من خلالها ، فستندم على أول يوم خرجت فيه إلى الوجود ! إذا أردت شيئا أطلب « الحاج » تجده بجانبك أربعاً و عشرين ساعة على أربع وعشرين . احفظ رقمك ، وإياك أن تضيعه !

و يبدو أنني ضيعته منذ البداية ، إذ حسبت أنه أعطاني رقم « 87 » . ولكن لكنته الغريبة وسرعته في الكلام جعلتاني أحتفظ برقم خاطئ كلفني في ما بعد ثمنا باهظا ..

رجعت إلى مكاني قريبا من باب الممر ، الذي ما فتئ يحدث صوتا مزعجا كلما دفعه أحد عند الدخول أو الخروج . و لم يكن اختيار ذلك المكان لي من باب الصدفة . بل كان إجلاسي هناك من أجل أن يتعرف الجميع على « الضيف الجديد » . يتعرفون عليه طبعا بطريقتهم! بات كل واحد يدلي بدلوه كلما وجدني في طريقه . هذا يرفسني برجله ، و هذا يقرع رأسي بأصابعه معقوفة ، و ذاك يأخذني من شعري و يهزني هذا ، و آخر يوقفني ثم يسقطني بجرة قدم . كانوا يتنافسون في الإساءة إلي و يتنادون من أجل ذلك :

« – أما رأيت السلعة الجديدة ؟

– تعال لتبصم على البضاعة ! »...

كنت فعلا مثل البضاعة الرخيصة التي لا تساوي إلا الرفس والاحتقار ! دام ذلك المسلسل الرهيب حتى وقت متأخر من الليل . انهارت

قواي من فرط الإهانة والعذاب . و دخلت في نوم هو أشبه بالغيوبة أو الإغماء منه لراحة النعاس . ثم جاء الصباح فصحت و قد كنت أتمنى ألا أصحو .. بدأت الحركة تنمو شيئاً فشيئاً في المكان . كان النظام الداخلي يقتضي أن ينهض كل « مسحور » (هكذا كانوا يسموننا) و يجلس في مكانه حتى تمر عملية المراقبة . و يأتي الفطور الذي كان عبارة عن قليل من الحساء الخالي من كل طعم ، كأنك تأكل التراب . و لكنه كان أفضل من الجوع على كل حال . تناولت فطوري مستسلماً لمقدوري ، و أنا أقول لنفسي :

– إن التشبث بالحياة شيء عظيم ! ما أهون أن تدعن لليأس في الظروف الصعبة ، فتميل إلى الإنتحار بكيفية مقصودة أو غير مقصودة ، لكن أن تصمد في وجه النكبات والآلام ، فذلك أمر لا يتاح لأي كان !
في ذلك اليوم الثاني من مقامي بمعتقل « درب مولاي الشريف » ، كان البرنامج خالياً إلا من زيارة الحلاق : أخذني « الحاج » من يدي وأدخلني على مكان يشبه موضع الغسيل ، حيث وجدت ذلك الرجل الذي أقعدني على كرسي صغير ، و أزال العصابة عن عيني بعد أن وجهني نحو الحائط . كان رجلاً قصير القامة ، غليظ البنية ، يناهز الأربعين . أمسك آلة الحلاقة و ثبتها على الصفر ، و بدأ يحصد شعري من الجذور قائلاً لي (وكأنه يواسيني على فراق شيء ثمين) :

– لا فائدة في الشعر الكثيف هنا . فقد يكون سبباً في إيذاءك !
و تذكرت ليلة البارحة لما أخذ أحدهم يمسك بي من الشعر و يهزني بقوة . و بدأ الحلاق يسألني بصوت خافت و يطل برأسه ليتأكد أن لا أحد يستمع إليه :

– ما اسمك ؟ من أي مدينة أنت ؟ أين قبض عليك ؟ أين كنت تدرس ؟

ما أن انتهى من أخذ هذه المعلومات حتى كان قد أتى على كل ما كنت
أحمل فوق رأسي من وبر ! أعاد الخرقه على عيني ، ثم نادى على الحاج
الذي تسلمني من جديد ، كخروف يعاد إلى الحظيرة بعد خضوعه لعملية
الجز .

لعبة الطائرة

و لكم كان ارتياحي كبيرا عندما رأيت الحارس يدخلني إلى غرفة فسيحة ، و يجلسني على فراش متواضع . لم أعد بجوار الباب الكبير ! لم أعد عرضة للضرب والرفس والسب في كل لحظة . قلت لنفسني :
- الآن يمكنني أن أنام قليلا !

فقد نال مني التعب و الإرهاق كل منال . و بالفعل ، لم أستفق إلا على أصوات الصحون تقرع الأرض مؤذنة بموعد الغداء . وضعوا أمامي صحنين ، و صب به « تشانكلي » (و هو اسم معار لأحد « المساحير » الذين حظوا برتبة موزع الوجبات) مغرفة من العدس الخالي من الملح كالعادة . لقد حرصوا على أن تغيب اللذة عن كل ما يقدمون من طعام !.. و مر ذلك اليوم بسلام ، دون أن يستفزني أحد . بل تسليت طوال النهار بأحاديث أطفال كانوا يلعبون بالقرب من نافذة غرفتي . لا شك أنهم أبناء بعض هؤلاء الزبانية الذين يبطشون و يعبثون بكرامة البشر في هذا الجحيم المتأجج . كان الأطفال يتحدثون ببراءتهم المعتادة ، غير متسائلين و لا متصورين لما يقترفه آبائهم وراء هذه الجدران .. قضيت تلك العشيّة و قد غرقت في عالم الصغار ، يطiron بخيالهم و يمرحون كالعصافير بين الحقول و المزارع ، بعيدا عن خبث الكبار و مكائدهم ...

في اليوم التالي ، و فيم كنت أترقب مجيء الصبية قرب نافدتي ، حوالي

الرابعة بعد الزوال (و كأنني نسيت أين أنا ، و ماذا ينتظرنني) ، جاء الحاج و استنهضني بسرعة ، فقمتم من مكاني مذعورا و أنا أتوقع الأسوأ .وصلنا إلى «الحي الإداري» ، و أدخلني الحارس إلى غرفة هي أشبه ما تكون بمجزرة منه لشيء آخر. رأت عينايا قضباناً حديدية كثيرة ، و عصيا وحبالا ، فأيقنت أن الأمر يتعلق بوسائل التعذيب . أمروني أن أتمدد على بطني ، و كبلوا يدي ورجلي وراء ظهري بحبل غليظ ، ثم مروروا قضيبا كبيراً بين أطرافي ، و رفعوني بواسطته إلى أن أصبحت معلقا في الهواء بين عمودين يصل بينهما القضيب . نفذوا كل هذا في هدوء تام ، دون أدنى تكلف ، كأن الأمر عادي تماما ! وانسحبوا إلى إحدى الزوايا ، و سمعتهم يرتشفون القهوة و قد اختلطت رائحتها برائحة السجائر ، و هم يتحدثون عن العقار و أنواع السيارات ! أما أنا فقد لزمت الصمت محاولا تحمل وضعيتي ، حتى أخذ الأمر يتعقد : بدأت أشعر بدبيب النمل في يدي ورجلي . لكن الأشد من ذلك هو الألم الذي بدأ يقطع منكبي . شيء لا يطاق ! أخذت أرسل التأوه و الأنين وأناشد الحاج (كلهم حجاج !) أن يخلصني مما أنا فيه ، دون جدوى ! ثم انطلق الصراخ متقطعا في البداية ، و متواصلا في الأخير . عندها تقدم الأشخاص الثلاثة كأنهم كانوا ينتظرون هذه النتيجة :

– كفى من الصياح و أخرج ما عندك إذا أردت الخلاص .

أما العويل و التباكي فلا يجديان شيئا معنا .

هكذا قال العميد .

– ماذا سأقول يا سيدي ؟

– قل ما تعرفه عن أصدقائك الذين ذهبوا إلى الجزائر . قل ماذا تعرف

عن « الولي » مثلا .

أجبتة أنني لم أتعرف عليه قط ، بحيث كان قد غادر الجامعة في السنة التي

التحقت بها . و الحقيقة أنني لم أعرف شخص «الولي» كثيرا . فقد التقيت به لأول مرة في أكادير سنة 1972 . كان مصحوبا بأحد رفاقه المقربين ، و كانا قادمين من الرباط. عرضا علي أن أصحبهما إلى الفندق الذي يقيمان فيه . غير أنني اعتذرت بالانشغال باستعدادي لخوض امتحان البكالوريا . وربما كانا ينويان أن يقترحا علي مصاحبتهم إلى « طنطان » حيث ستنتقل المظاهرة المشهورة ...

كانت مدينة « طنطان » معروفة إلى حدود ذلك التاريخ بموسمها الكبير الذي يعقد سنويا في بداية فصل الصيف . و كان الناس يؤمنون إلى ذلك الملتقى التجاري من كل البقاع ، إذ اشتهرت المدينة بوفرة أنواع السلع الرخيصة المستوردة من « جزر الكناري » ، و من داخل المغرب ، و حتى من بلدان أخرى : أنواع المذاييع والمسجلات والأغطية والسجائر والشاي والعطور وغيرها ... اختار « الولي » ورفاقه موعد الموسم لتنظيم مظاهرة يشهدها أكبر تجمهر ممكن ، لإثارة انتباه الرأي العام إلى ضرورة التحرك من أجل مواجهة الاستعمار الإسباني في الصحراء .

كانت قد مضت سنتان تقريبا على ارتكاب السلطات الفرنسية مذبحة عرفت بمذبحة « الزملة » بتاريخ 17 يونيو 1970 . راح ضحية تلك الأحداث العشرات من المواطنين الصحراويين ، و على رأسهم متزعم تلك الانتفاضة بمدينة « العيون » ، الشهيد « محمد سيد ابراهيم بصير » ... انطلقت مظاهرة طنطان إذن طبقا لما أراد لها «الولي» ورفاقه . ولقيت تجاوبا جماهيريا كبيرا . إلا أن ذلك لم يرق للسلطات المغربية . فواجهت المتظاهرين بعنف شديد ، و زجت بالعديد من الشباب في مخافر الشرطة . و لعل ردة فعل السلطات تلك ، إزاء تظاهرة سلمية ترفع شعارات عادية تدعو إلى طرد الاستعمار من الصحراء ، لعل ذلك هو

ما جعل الولي وأصحابه يقررون التوجه إلى الجزائر ...
كان لقائي الثاني بالولي في « الرباط » لما التحقت بكلية الطب في نهاية
نفس السنة . كان ذلك في شقة رفيقه نفسه . ذكره هذا الأخير بتقابلنا في
« أكادير » . فسلم علي بحرارة وهنأني بالنجاح قائلا :
- كنت قد غضبت منك إذ لم تصطحبنا إلى الفندق آنذاك ، غير أنني أتجاوز
عنك إذ نجحت بامتياز .
كان شابا نحيفا ، طويل القامة ، ودودا كثير الحيوية ، يغطي رأسه شعر
كثيف ...

حرصت أن لا أبوح بشيء للعميد . فقد تعلمت من خلال تجربتي
المتواضعة أنك كلما التزمت النفي في التحقيق ، كلما نجوت من كيد
المستنطقين و مكرهم ، و هم يحاولون دائما أن يوقعوا بك في
التناقض . و لما رأى المسؤول أنني لا زلت أمتنع عن الكلام ، أعطى الأمر
للجلاد بالتدخل . طفق ينزل على قدمي بسيطا موجعة و يصرخ في وجهي
بكلمات نابية ، و يضع في بعض الأحيان يده الضخمة على أنفي وفمي
حتى أشعر بالاختناق . لم أعد أقوى على الصراخ ، وأحسست بنبضات قلبي
ترتبك ، و كدت أن يغمر علي ...

وضعوني أرضا في الأخير ، و فكوا كبولي . لم أقدر على الوقوف من شدة
الألم في رجلي وساقِي . والأدهى من ذلك أن ذراعي طفقا يرتعشان بشكل
لا إرادي ، كطائر يحرك جناحيه ليطير فلا يطير . أخذ الحاج يطوف بي في
الفناء و ينصحنِي ان أحت الخطى حتى يدور الدم الراكد في عروقي .
و فعلا ، عادت الأمور إلى نصابها خلال ثلاث دورات أو أربع . و عدت إلى
غرفتي محبطا ، محطم القوى ، و قد خلفت تجربة اليوم في نفسي أثرا
عميقا وجرحا داميا . و لو كانت الأشياء توقفت عند ذلك الحد لهان الأمر ،

لكن العملية تكررت في الأيام اللاحقة عدة مرات ، جعلتني أبيت الليل و أظل النهار أتوجع من شدة الألم . و كنت في كل مرة أعود فيها من «لعبة الطائرة» المشؤومة ، أبدأ أعد الساعات في انتظار اللعبة القادمة . و بعد مرور ثلاثة أسابيع ، جاءني ذات صباح أحد الحجاج وقادني إلى المكان المعهود . وجدت العميد في استقبالي ، فتلقاني بصفعة قوية كدت أن أفقد معها توازني .

– أوشكت أن أصدقك يا ابن الحرام !

هكذا قال لي ، ثم استطرد يسأل :

– لماذا لم تحدثني عن مجموعتك ؟ ألا تعرف المختار ؟ ألا تعرف الحبيب ؟ وأحمد ؟ و محمد؟

هممت أن أقول شيئاً ، لكنه نهرني بصرخة قوية :

– أغرب من أمامي !

أعادني الحارس إلى الزنانة ، و أنا حائر مهزوم ، لا أقوى حتى على التفكير . و بعد أيام ، نادوا علي من جديد .وقفت شطر الحائط في انتظار الأمر . و سمعتهم يطلبون الأشخاص و يسألون كل واحد عن اسمه و نسبه و عنوانه ... و كانت تصل إلى مسمعي بعض العبارات :

– لقد اكتشفنا التنظيم ! نعم ، هؤلاء هم أعضاء المنظمة !..

و جاء دوري ، فدخلت أحد المكاتب حيث أخذ شرطي يسألني :

– ما اسمك ؟ ما اسم أبيك ؟ ما اسم أمك ؟ تاريخ و مكان ازديادك ؟ ...

لما انتهت عملية التسجيل هاته ، عادوا بي و قد اصطففت مع مجموعتي الجديدة . لم يلحقوني بالمجموعة تماماً ، و لكنهم فكوا عزلتي نسبياً ، بحيث أصبحت أقطن في «حي المساحير» ، في ممر صغير يمتد أمام عدد من الزنان . كان سريري في الطرف الأقصى من الممر . و عند

رجلي سرير سجين آخر . أما الزنازن فقد كانت مكتظة عن آخرها . كان همي أن أرهف السمع علني أتعرف على صوت أحد الأصدقاء . ولكن ذلك كان شبه مستحيل ، لأن الكلام لم يكن متاحا إلا في حدود المناداة على الحاج من أجل طلب الذهاب إلى المرحاض ، أو الاستئذان للجلوس أو الشرب ... أحسست بنوع من الارتياح عند إلحاقني بحي السجناء . على الأقل هنا أشعر أن أناسا يعيشون بجواري ويعانون مثلما أعاني . لكن هذه الوضعية لا تخلو من سلبيات . فالحراسة مشددة لمنع المساحير من التحدث إلى بعضهم البعض . و هنا تتم المراقبة كل صباح بالمناداة على كل واحد برقمه ، و هو ما وقع في اليوم الموالي لقدمي إلى الحي . وقف المسؤول المباشر بالقرب مني و صاح بصوته المثير :

– هيا اصحوا يا كلاب . سأبدأ المناداة بالأرقام !

كان كلما نطق برقم أجابه أحد السجناء : « حاضر! » و نادى على رقم «37» ، ثم كرر نفس الرقم فلم يجبه أحد . ثم صاح بملء فيه :
– 37!

و فجأة نزل علي بركلة موجهة أصابتني في الكتف .

– لماذا لا تجيب يا سافل ؟

قلت له إن رقمي «87». و انهال علي بلكمة على الصدر ، معلنا أنني لازلت أحتاج إلى المزيد من الترويض . و لعل الحراس التقطوا ذلك الإعلان و اعتبروه بمثابة أمر صريح . فقد صاروا يفتعلون الأسباب لمعاقبتي من حين لآخر . أذكر أن أحدهم جاءني مرة متظاهرا بمراقبة العصا ، فإذا هي غير مشدودة بإحكام حسب ادعائه . اتهمني أنني تعمدت إرخاءها لكي أسترق الرؤية ، و تلك طبعا خطيئة لا تغتفر طبقا لنظام المؤسسة . جرتني إلى سقيفة تربط بين ممرين ، و أمرني أن أقف على ساق واحدة . و طفق يذهب

ليلقي إطلالة على المساحير في الزنازن و يعود إلي ليلطمني بيده تارة على رأسي ، و بقدمه تارة على ظهري . و كان لا يسمح لي أن أبدل القدم التي أقف عليها إلا بموافقته . استمر الأمر بضع ساعات وأنا أتلقي الضربات و عبارات السب و الإحتقار . لم يعف عني ذلك الحارس الجبان إلا و أنا على حافة الانهيار . أعادني إلى مكاني و قد بدا مزهوا منتشيا بما فعل ! أما أنا فقد ملأ الغيظ قلبي ، و بت أرسل إليه وابلا من اللعنات و السخط في صمت . و تمنيت لو أظفر به يوما فأذيقه أضعاف ما أذاقني من ذل و شماتة . و لكن هيهات ! كيف أنتقم من شخص لم أعرف حتى ملامح وجهه ؟ ومتى سأصبح حرا والدرب لم يزل أمامي طويلا ، و لم تمض بعد إلا أسابيع قليلة على دخولي هذا النفق المظلم ؟

لم يمر إلا يومان أو ثلاثة على ذلك الحدث البارز في ذاكرتي ، حتى بدأت أشعر بأوجاع شديدة في مفاصلي وفي رأسي . ثم بدأت الحمى تهزني و تصيبني بالرعشات والهذيان . و أخذ التهاب اللوزتين يظهر بما ينجم عنه من آلام في الحلق وصعوبة في الابتلاع . لم يكن من السهل إقناع الحراس من طرف السجين بمعاناته . فالسجين دائما يكذب و السجين دائما يتحایل ، و السجين دائما يخادع بالنسبة لهم . لذلك تطلب الأمر أياما عديدة لكي أثبت أنني «جدي» في مرضي ، و لكي يأتي مسؤول «الحي» أخيرا ليؤكد صحة ما أدعيه . لم أعد أستطيع حتى ابتلاع ريق ، فعزفت عن الطعام . و زارني ممرض إثر ذلك فناولني حقنة عضلية ...

الصاعقة

لم أتماثل للشفاء إلا بعد أيام عديدة . انهارت قواي تماما و وقفت على عتبة الهزال . و جاء العميد ذات يوم ، و قد عرفت قدومه بهبوب تلك الرائحة العطرة التي تسبقه إلى الأنوف ، و من خلال الصمت الذي خيم على الحراس فجأة . وقف بالقرب مني وسمعت أحدهم يحدثه همسا . و ترامت إلى مسمعي عبارة :

– أتركونه هكذا حتى يموت ؟

لم أفهم شيئا من هذا الحدث ، و لم أدرك حقيقة هل كانوا يتحدثون عني أم عن أحد آخر . و في اليوم التالي ، جاءني الحارس بعد وجبة الغداء و أمرني بالوقوف . قمت من مكاني متسائلا عن الأمر ، و أخذت ألهث خلف الشرطي الذي كان يمشي بسرعة و هو يجرنني من القيد . خرجنا من أحد الأبواب الخلفية و قد ألبسوني جلبابي الأحمر و وضعوا على وجهي قبعته بعدما خلصوني من العصابة . وجدت نفسي في مكان قليل الضوء يشبه المرآب ، و إذا بسيارة « سطافيت » تنتصب أمامي و قد فتح بابها الخلفي . أمروني أن أصعد إلى السيارة ففعلت . و لكم كان خوفي كبيرا لما رأيته رجلا يجلس أمامي و قد أمسك رشاشة صوبها نحوي بإمعان ! و للمرة الثانية يخطر الإعدام ببالي ! و أي احتمال غيره يتصور في هذا المكان المظلم و مع هذا الصمت المريب ؟ و زاد من رهبتي صوت

أحد السجناء وهو يئن و يتوجع . و آخر رأيت قدميه تضمختا بلون أحمر
و تخللتها جراح مفتوحة !

انطلقت السيارة بعد دقائق دون أن يكون بإمكانني معرفة وجهتها هذه
المرة ، إذ كانت المقصورة مظلمة و معزولة عن السائق تماما .. وصلنا بعد
ساعتين من المسير . أنزلونا من «السطافيت» ، و إذا نحن في مكان جمع
القمامة من مبنى ضخم الجدران . تبادر إلى ذهني أول ما تبادر أنه سجن
كبير . قلت في نفسي :

– لا بأس بهذا . أرضى بكل شيء ، إلا الإعدام !

وجهونا نحو أحد الأبواب في أسفل العمارة ، و دخلنا إلى مصعد
كبير. ضغط الشرطي الذي بقي معنا على زر الطابق الخامس ، بعد أن
أزال الغطاء عن أعيننا ! شيء لا يصدق أن يسمح لنا بالنظر بعد كل هذا
الحرمان . و لاحظت أن السجن الذي كان يرسل الأنين قد اختفى ، و لم
يبق معي إلا ذلك الذي يتألم من قدميه و قد أثخنتهما جراح التعذيب (في
لعبة الطائرة) . أخذ الشرطي يحدق إلينا و في نظره شبه ابتسامة ، كأنه
يدعونا إلى الكلام . قلت له في تودد :

– إنني أرى الضباب أمام عيني !

أجابني :

– إنه من أثر تلك الخرقعة اللعينة ، و لكن سوف يزول مع المدة إن شاء الله .
لم أكن أتوقع أن يجيبني بهذه الطريقة المهدبة . و كيف أتوقع ذلك ولم
أكن أسمع قبل ساعتين من أقرانه – و ربما منه هو نفسه – سوى كلام
السب و الذم و الازدراء! لكنني تشجعت أكثر لما رأيته يلتفت إلى السجن
الآخر و يسأله عن حال قدميه مبديا أسفه على ما أصابه . فبادرت إليه
بالسؤال :

– هل نحن في سجن جديد ؟

– لا ، إنكم في المستشفى !

« أيصح هذا ؟ لا ، إنه يسخر مني ! هكذا هم البوليس دائما ، لا يعطونك الحقيقة أبدا ! » هكذا كنت أحاور نفسي .

وقفنا أخيرا عند الطابق الخامس . قادني الشرطي إلى غرفة صغيرة ، و وجهه صاحبي (الذي لم يكن سوى المناضل عبد الحميد الفكهاني ، أحد قادة حركة « إلى الأمام ») إلى الغرفة المقابلة . وكانت المفاجأة العظيمة : إنني فعلا في المستشفى ! و ليس أي مستشفى ، إنه «ابن سينا» ، المكان الذي كنت ألتقى فيه الدروس والتدريبات و لم يكدر يمر بعد شهران على ذلك (إذ كنا في الرابع و العشرين من أبريل) ! و تلك البطاقة المعلقة هناك ، على سرير الرجل النائم ، كتب عليها اسم الأستاذ الكبير « ابن يحيى » ! يا للصدفة ، هو نفس الأستاذ الذي كنت أتمرن في مصلحته قبل أن يلقي علي القبض ! و من كان يظن من الطلبة — و الموظفين أن الطابق الخامس «لابن سينا» امتداد لأحد السجون السرية الرهيبة ؟ تملكني شعور عميق بالحنين إلى تلك الحياة الجامعية الرائعة ، و تمنيت لو أعود فألبس البزة البيضاء و أهتم بتتبع أحوال المرضى تحت إشراف الأستاذ المقتدر «ابن يحيى» ! لكن هيهات هيهات !... و فيم أنا أفكر هكذا و ألعن هذا الجهاز الخفي الذي تسلط علي كشبح الظلام ، و رمى بي بعيدا عن حياة المتعة والنشاط ، فيم كنت أندب حظي ، دخل علي الشرطي صاحبنا و أخذ يسألني :

– هل عرفت الآن أين أنت ؟

– نعم ، أنا في مستشفى ابن سينا .

– و ما أدراك بهذا ؟

- لقد قرأت اسم الأستاذ « ابن يحيى » على تلك اللوحة .

- كيف عرفت هذا الطبيب ؟

- إنه أستاذي . فقد كنت أدرس في كلية الطب .

فهز رأسه مبدياً نوعاً من التأثير والإشفاق علي . ثم قال بعد تردد :

- لهذا السبب يجب علي أن أربط يدك مع السرير بواسطة القيد . إنها الأوامر !

فعل ذلك وانصرف . « لا ضير ، (قلت في نفسي) ، مادامت عيناى طليقتين ، ومادمت في مستشفى ابن سينا ! هذا فضل كبير لمن كان ينتظر الإعدام ! ! »

بدأ الرجل هنالك يتحرك في سريرهِ وقد بدا عليه التعب ، ثم فتح عينيه بصعوبة وأرسل إلي نظرة فاترة . أشرت إليه بيدي محييا ، وأشار إلي بأصبعه . ولما تمعنت في وجهه أخذني نوع من التوجس والريبة . « ألا يكون هذا الجنرال أوفقيرو ؟ ولكن الجنرال أوفقيرو مات حسب ما قيل ! ومن يدري ؟ قد يكون هو . إنه يشبهه إلى حد بعيد ! إذن ، هل أكون أنا خطيرا إلى درجة أن تجمعني به غرفة واحدة ؟ » لقد تدولت صور الجنرال كثيرا في السنوات الماضية في الصحف والمجلات ، خاصة بعد محاولته الانقلابية الأخيرة . لذلك تذكرته بمجرد أن رمق إلي هذا الشيخ بعينيهِ الصغيرتين . مرت أيام على مقامي الجديد . و كان الفرق شاسعا بين الوضع هنا ، وبين ما يجري في « الدرب » . لا مجال للمقارنة بين الأمرين . التغذية هنا مناسبة ، و السرير مريح ، و الأغذية نظيفة ، و حتى معاملة الحراس حسنة إلى حد بعيد ! شبان يتعاقبون ، ويتنافسون في إبدائنا كل التقدير والاحترام . أحاديثهم ودية ، و أخلاقهم دمثة . و حتى ذلك الرجل الذي صاحبنا من هناك ، وهو رئيسهم ، كان رجلا طيبا للغاية ! و بدأ

الشيخ المريض يتعافى من بعد عملية ثقيلة على الجهاز الهضمي .
إنه ليس الجنرال طبعا ، و لكنه ابن عمه ! كان يشغل منصب « قائد »
بإحدى المقاطعات بمدينة « وجدة » . شيخ هادئ ، قليل الكلام ، لكن لسان
حاله يحكي عن مأساة إنسانية عميقة .. حتى الحراس لم يكونوا يجروؤن
على الحديث معه كثيرا ، رغم حسن سلوكهم ، فهو « أخو » الجنرال كما
يقولون !. بدت الأيام تمر بسرعة كالسحاب . و كنت أتمنى أن أقضي كل
مدة سجنى هناك ، مع أولئك الحراس ، و مع « مولاي أحمد أوفيق » .

زارني الطبيب مرتين أو ثلاثا . و كان يعبر لي ضمنا عن تعاطف
كبير ، خصوصا لما علم أنني كنت طالبا في الطب . نزلوا بي ذات يوم
إلى الطابق الرابع حيث مصلحة أمراض القلب لإجراء التخطيط ، ثم نزلت
إلى الطابق السفلي حيث مصلحة الفحص بالأشعة . و كان شرطي ببذلته
الرسمية هو مرافقي ، بينما كنت ألبس بذلة المرضى . جلسنا في أحد
الممرات ننتظر دورنا للدخول إلى القاعة . و فجأة ، إذا بإحدى زميلاتي في
الكلية تمر بالقرب مني ! كانت صدمتي قوية ، و كدت أن أصرخ لأنادي
عليها . لكن الفتاة لم تلتفت إلى أحد و لم تنظر تجاهي حتى ، بل مضت
في سبيلها غير لائقة على شيء ! قلت في نفسي :

– هل كانت ستعرفني حتى و لو رأته ؟ ألم تتغير كل ملامحي بعد أن
أصبحت مجتمتي قاعا صفصفا ، و أخذ الهزال مني مأخذه ؟ و حتى لو
عرفتني ، ماذا عساها أن تفعل ؟ أو ليس الشرطي بالمرصاد ؟...

عمل الحراس مع مرور الوقت على تقوية جسور الثقة معي ، حتى
أوشكوا أن يصبحوا أصدقاء حقيقيين . لذلك ارتأوا أن ينقلوني إلى غرفة
أخرى ، حيث كان يوجد شاب من حركة « إلى الأمام » يدعى « ميلود » .
هناك لم يعودوا يجدون حرجا في التحدث إلينا ، خاصة عندما ينزل الظلام

و يعسّس الليل ، و يخلو المكان من عيون المتربصين الماكرين ..أخذت أحاول أن أستدرجهم للحديث عن قضية الصحراء لأتعرف على آخر الأخبار ، دون أن أفصح عن اهتمامي بذلك الشأن . إلا أنهم كانوا يدركون حاجتي إلى معرفة ما يجري في العالم ، فعملوا على تزويدي بما يحدث من مستجدات . و في هذا السياق ، دخل علينا رئيس الفرقة ذات يوم (ذلك الرجل الطيب الذي قادني من «الدرب») و قد بدا على وجهه نوع من الإرتباك والرغبة في البوح بشئ ما . و بعد أن تقصى المكان وأطل على جميع الغرف للتأكد من خلوها من أي عنصر خارجي ، عاد وأغلق الباب بإمعان ، ثم وجه السؤال إلى الحارسين :

– ألم تسمعا بالخبر الجديد ؟

فلما أجاباه بالنفي ، قال و هو ينظر إلي كأنه يريد أن يستشف مدى ردة فعلي :

– لقد قتل «الولي» زعيم «البوليساريو» !

نزل علي الخبر كالصاعقة . و اهتز قلبي حتى كاد أن يخرج من بين الضلوع . لكنني تماكنت نفسي مخافة أن يصدر مني ما يوحي بالإهتمام أو التأثر . و بادرت بإلقاء السؤال :

– متى و أين كان هذا ؟

– بالأمس ، في نواكشوط بموريتانيا .

ماذا عساي أن أقول . و ماذا عساي أن أفعل ؟ كنت إلى حدود سماع الخبر أشعر براحة و اطمئنان كبيرين . بل نسيت ما ينتظرني في ذلك الجحيم المسمى بالدرب ، و قد قضيت هنا أزيد من شهر في هذا الجو الرائع (كنا في الأسبوع الثاني من شهر يونيو) . لكن هذا النبأ المفجع أضع علي كل شيء . شعرت بإحباط شديد ، و كدت أن أصرخ :

«مستحيل ! !..» و مثلت أمامي صورة الولي و هو يبتسم و ينظر إلى الأفق البعيد ، فاغرورقت عيناى قليلا ، وبكيت من قلبي كثيرا على ذلك الشاب الشجاع الطموح ، الذي لم يكن له من ذنب سوى أنه تعلم و وعى ، و كان ذا ذكاء زائد ، و إخلاص زائد ، و حماسة زائدة عن المألوف ! إنه مؤسف حقا أن يموت شاب من هذا الطراز ، و بهذه السرعة !.. تأججت الأشجان في صدري حتى أوشك على الانفجار. ما أصعب أن يحمل قلبك أطنانا من الحزن والأسى ، و أنت لا تستطيع أن تبوح بها لمن حواليك ، فتبقى مكبوتة حبيسة الجوانح والفؤاد !.. و فيم أنا أتخبط في أفكاري المبعثرة سمعت الشرطي يقول :

– هل تعرفه يا «سي عبد الرحمان؟»

– لا ليس كثيرا ، و لكنني سمعت عنه الكثير .

و باتوا يتحدثون في الموضوع و يبدون آراءهم و توقعاتهم فيه :

– إنه انتصار للمغرب .

– لقد انتهت القضية .

– قطع رأس الحية !

– إنها هزيمة للجزائر !

و ذهب أحدهم إلى القول بأن السجناء سيصبحون طلقاء بعد أيام ، و هو

يحدق إلي بنظرة مجاملة . قلت له :

– ممكن ،

و أنا أعاتب نفسي : « أيسعدك أن يكون مقتل الولي فرصة لخروجك من

السجن ؟ لا ، لا ، لا سمح الله بذلك !..»

العودة إلى جهنم

مرت بضعة أيام دون أن يتغير الحديث كثيرا ، وقد بدأت أمل من سماع آرائهم و تكهناتهم في الموضوع ... و جاء يوم العودة إلى الدرب ، ذلك اليوم الحزين ! ما أتعس أن تساق مكرها إلى مكان لا تحبه و لا تحب من فيه !ظلام في ظلام ، حيث لا فرق بين الليل و النهار ، و لا وجود لشيء يريح خاطر : لا مأكلا و لا مشرب ، و لا لباس و لا غطاء . ما أقسى أن تعود إلى هذا الجحيم و أنت تحمل خبرا قاتلا كنبا وفاة إنسان تكن له احتراما غير محدود ، بل كان بمثابة النجم المتوهج في سمائك ! و زاد من كآبتي توديع أولئك الأشخاص الذين كانوا يحرسونني ، و ذلك الشاب السجين الذي تقاسمت معه أوقاتا حميمية نسجنا خلالها علاقة ود و وئام ..

عدت على كل حال إلى الدرب ، و كان علي أن أتقبل واقعي الجديد ! و لكنني لاحظت تغيرا نسبيا في المعاملة وظروف العيش . فقد خفت حدة القمع ، و تراجع شدة الحراسة عما كانت عليه . لم تعد المناداة بالأرقام كل صباح و ما كان يصحبها من ضرب و شتم . و لم تعد المعاقبة لأتفه الأسباب . وشعرت أن ذلك المسؤول صاحب اللكنة الغريبة لم يعد يعاملني بنفس القساوة ، و إنما بات يتقرب مني شيئا فشيئا . فقد وقف بجانبني مرة وسألني عن حالتي الصحية .

– لقد عانيت كثيرا يا سي «نعينيةة». (هكذا أصبحوا يسمونني بعد عودتي

من المستشفى) .

واستطرد يقول :

– سوف يكون الفرج قريبا إن شاء الله . فقد ذهب زملاؤك كلهم .

ولما سألته هل أطلق سراحهم ، أجابني : «ربما !» ..

في تلك الأيام جيء بسجين جديد ، و أدخل بجانبني في زنزانة صغيرة . واستطعنا أن نتعارف رغم صعوبة الموقف . فإذا به طالب يدعى « إدريس » ، كان يدرس بفرنسا ، ألقى عليه القبض في المطار لدى عودته إلى الرباط ، وذلك في إطار حملة اعتقالات طالت الكثير من مناضلي حركة « إلى الأمام » . و عرفت أنه كان قبل ذلك يدرس «بمدارس محمد الخامس» ، ويعرف أغلب الطلبة الصحراويين الذين كانوا يزاولون دراستهم هناك . وعلمت عن طريقه بتفاصيل العملية التي توفي فيها الشهيد ...

توالت الأيام بطيئة كئيبة ، و أنا أحاول أن أتعود على وضعي الجديد . ولا أنكر أنه لولا ذلك الخبر التعس ، لكنت أسعد بكثير مما كنت عليه في المرحلة الأولى . فقد تغيرت الظروف بالدرب بصورة إيجابية . حتى أنني أصبحت أتعامل مع العصاة بطريقة سلسلة . إن العصاة كانت تشكل في ذلك المعتقل الممقوت ، أكبر عناصر الضغط النفسي على السجين . فهذا النوع من السجون لا يسلب الإنسان حريته فقط، بل يسلبه النظر ، و يسلبه الحركة ، و يسلبه الكلام ، وحتى التفكير و الخلو إلى النفس ! إلا أن سلب النظر أمر فظيع فظيع !

بمجرد أن أصبحت أرى بصيصا من خلال الخرقة المشؤومة ، بدأت أحس بنوع من الإطمئنان . و أصبحت أرى صور أولئك الذين لم أكن أفرق بينهم إلا بواسطة أصواتهم . و بدأت أقرن الصوت بالصورة و أسجل لكل شخص ما كان يصدر عنه تجاهي من تصرفات . و بما أن الوضع تغير ، فقد

أخذ العديد من الحراس يتأقلمون مع الأحداث ويتقربون إلى السجناء . حتى ذلك العنصر الشرير الذي مارس علي كل ما عرف من أساليب القهر والإهانة في تلك الليلة المشهودة ، بات الآن يتودد إلي بشكل مبالغ فيه ، كأن يده لم تمتد يوما لأحد ، و كأن لسانه لم ينطق أبدا بسوء !

تعاقبت في الأسابيع الموالية دفعات من الشباب المعتقلين ، خاصة من حركة « إلى الأمام » . إلا أن إجراءات نقلهم إلى السجون الرسمية كانت تتخذ بوتيرة سريعة ، من أجل تقديمهم إلى المحاكمة . و حلت في تلك الأيام مجموعة صغيرة من الصحراويين تعرفت على أحدهم . إنه «البشير» ، الذي أصبح «يسكن» بالقرب مني ، و الذي توطدت علاقتي به كثيرا في تلك الظروف الصعبة . و استطعنا أن نكسر حاجز الصمت المفروض علينا ، و أن نتحدث في ما بيننا من حين لآخر كلما سنحت الفرصة . و كان البشير يمدني بين الفينة والأخرى بسيجارة مصحوبة بعود ثقاب ، كانت تمثل بالنسبة إلي هدية لا تقدر بثمن ، و عملا وديا لا ينسى ! كان التدخين ممنوعا على السجناء . إلا أن إدارة المعتقل سمحت لتلك المجموعة من الصحراويين بذلك المكسب . و كانوا يزودونهم بالدخان باستمرار ، و بصورة استثنائية . أما أنا فقد كنت مقصيا طبعاً من هذا الإمتياز . لذلك كان يجب علي أن أقوم بالعملية في سرية تامة ...

و جاء يوم الفراق ! فقد نودي على البشير ورفاقه ذات صباح ، فذهبوا دون أن أعرف إلى أية وجهة . «لعلمهم قدموا إلى المحاكمة مع الأفواج الأخرى ؟!» هكذا كنت أتساءل . و رجعت إلى وحدتي من جديد ، و أصبت بحزن عميق بعد مغادرة البشير ، الذي استأنست بوجوده ، و ألقت أحاديثه الرقيقة ... أصبح السجن شبه خال في الأيام الموالية . و لم يبق هناك إلا عناصر قليلة وصفت «بالحالات الفردية» . لذلك جمعونا في «الحي

الإداري» . و جيء في إحدى الأماسي بشاب فرنسي الجنسية . يبدو أنه وقع في فخ لم يكن يخطر له على بال . و لعله كان يرجح في بعض الأحيان أن الأمر لا يتعلق إلا بكابوس ، أو «بكاميرا خفية»! فقد كان يصيح بكل قواه : – أزيلوا هذا الحديد عن معصمي ، أزيلوا الخرقه عن عيني ! ما هذه الحماقة ؟

و بدا واضحا أن المسؤولين أعطوا تعليمات استثنائية بخصوص التعامل معه . فقد سمحوا له بهامش من الحرية لم يكن يحق لغيره . على الأقل ، هو كان يستطيع أن يعبر عن تدمره ويصيح كيف يشاء ! لقد شفعت له جنسيته الفرنسية ! أكثر من ذلك : كان كلما صعد غيظه إلى سقف معين ، أبلغ الحراس العميد بالخبر ، فاستدعاه الأخير إلى مكتبه وناولته سيجارة ، وتحدث إليه بضع دقائق ليطمئنه ويهدئ من روعه .. تعرفت على الشاب شيئا فشيئا ، إذ كان مرقده بجوار مرقدي. تعرفت عليه من خلال إجاباته عن بعض تساؤلات الحراس ، الذين كان يدفعهم الفضول إلى الدخول معه في أحاديث متنوعة بغية فك لغز تواجده في الــــدرب . و كنت أدخل معهم على الخط أحيانا كمترجم ، مستغلا ضعفهم في التواصل باللغة الفرنسية . و هكذا علمت أنه كان طالبا في كلية العلوم «بباريس». وفهمت أنه من أم جزائرية الأصل . كان اسمه الشخصي «نورالدين». ولربما كان اسمه و خؤولته سببا في سقوطه في المصيدة ! و مع مرور الأيام ،أخذ «نورالدين» (أو «إدين» كما يلقبه أبواه) يتعود على وضعه الجديد ، ويحاول تناسي معاناته بتجاذبه الحديث معنا في مواضيع متنوعة . بل استطاع أن يتكيف خلال أيام مع وجود القمل الذي أثار فزع له اكتشفه لأول مرة . فقد ثارت ثائرتة لما ألقى القبض على أول قملة يعثر عليها في حياته . و طبعا ، وجد صعوبة

كبيرة في استساغة التعايش مع ذلك الكائن القذر ، الذي لا يروق له العيش إلا حيثما كان البؤس والشقاء ! كما أنه لم يكتسب المهارة اللازمة لمحاربة القمل ، إلا بعد مرور مدة غير يسيرة . فقد كانت القملة تنزلق بين ظفريه قبل أن يتمرن على طريقة الإجهاز عليها .

و هكذا استفاد أن كل عمل مهما كان ، يحتاج إلى ممارسة وتدريب ، حتى قنص القمل !..

و صراحة ، فقد أدخل علي وجود «إدين» طمأنينة خاصة ، وعوض لي نسبيا ما كنت أشعر به من كدر وحرمان ، بحيث كنت وإياه نستغل انشغال الحراس من حين لآخر ، لنأخذ في اختلاس بعض اللحظات الودية ...

و شاءت الصدفة أن تكون مغادرتنا للدرب في نفس اليوم ، بل في نفس الساعة ! لازلت أذكر ذلك الصباح الذي جاء فيه قائد الحراس وأمرنا بالقيام ، بنبرة توشي بالفرح والتفاؤل . وقفنا أمام مكتب القائد في انتظار أن يشير إلينا بالدخول ، وقد وجهونا شطر الحائط كعادتهم. كانت الفرحة تملأ قلبه ، أما أنا ، فلم تكن فرحتي مكتملة ، إذ كنت أستبعد أن يفرج عني للتو ، لكنني كنت متفائلا على كل حال . سمعت نورالدين يهمس في أذني وهو يكاد يرقص من الفرح :

– لا شك أن هذا يوم عظيم ، أليس كذلك ؟

قلت له :

– نعم ، بلا شك !

– إياك أن تنسى الاتصال بي فور رجوعك إلى أهلِكَ ! أما زلت تذكر

عنواني ؟

– بلى !

و لما جرني الحارس إلى مكتب الرئيس ، سمعت «إدين» يقول :

– وداعا يا عبد الرحمان !

استقبلني الرجل صاحب اللكنة الصعبة بحفاوة ظاهرة ، على عكس ما كان في أول أيام مقامي بالدرب ، أي منذ ثمانية أشهر (نحن في الخامس والعشرين من شهر نونبر) .

– ها أنت ستغادرنا يا «نعينية» .

هكذا خاطبني . ثم بادرت به بالسؤال :

– هل سأصبح حرا يا شاف ؟

أجابني بتردد ظاهر ، كأنني فاجأته بالأمر :

– نعم ، سـ .. ستلتحق بزملائك في مكان ما .. و .. بعد ذلك سيفرج عنكم إن شاء الله ! البس ثيابك الحقيقية و ارم عنك هذه .

أخذت ملابسي و ارتديتها بسرعة ، وقد وجدت في ذلك ارتياحا كبيرا . فقد كانت بذلة الدرب رمزا للشؤم والحقار بالنسبة لي . إلا أن جواب الضابط عن سؤالي الساذج بدأ يثير في نفسي شعورا متزايدا بالضيق والقلق . ليس من طبعي أن أتشاءم ، ولكن كلام الرجل كان ملفوفا بالغموض الكثير . و عدت أطمئن نفسي و أقول :

– على كل حال ، فالخروج من الدرب و ملاقة الإخوة خلاص في حد ذاته !
أخذ الحارس بيدي بعد أن لم يبق من بقايا الدرب إلا العصاة ، و سرت أرافقه خطوة بخطوة ، حتى صعدت إلى السيارة الواقفة في الساحة .

رحم الله «الدرب» ما أجمله

نزع الشرطي الخرقه عن عيني ، فإذا بي أجد نفسي بجانب زميلين فعلا ، أحدهما يدعى «محمدا». و قد كان من أصدقائي المقربين في الجامعة ، و الآخر أيضا اسمه «محمد»، لكنني لم أكن أعرفه من ذي قبل . تصافحت مع الصديقين وجلسنا في مؤخرة «السطافيت»، وبجانبنا شرطيان يرمقان إلينا بتودد ، و نحن نتبادل السلام و الكلام .

ما أجمل أن يرى الإنسان النور بعد طول ظلام ! ما أروع أن يشاهد الحياة بعد أن بات مخبأ عنها شهورا تقاس بالأعوام ! كنت أشعر فعلا أنني أصبحت «نصف حر» بعد أن تركت الدرب و ظلمته و وحشته و ركود الحياة فيه . الآن أتحرك في سيارة تشق شوارع «الدار البيضاء»، و أرى الناس و البنايات ، و أسمع أصوات الحياة ، و أتحدث بحرية إلى صديقين يقاسمانني نفس الشعور و المصير! كان الجو رائعا ، و الشمس ساطعة . خرجنا من الدار البيضاء، و مضت بنا العربة في اتجاه الجنوب . و كان ذلك التوجه كافيا لكي نبدأ في نسج أوهام من خيالنا ، مفرطين في التفاؤل :

ألم نكن نقترّب من الديار؟ ألسنا في الاتجاه الصحيح ؟ ها نحن في الطريق إلى مراکش ، و بعدها إلى أكادير ، ثم إلى هناك .. حيث الأهل والأصحاب ينتظرون! كنت أتحدث إلى الصديقين ، و أهدق من حين لآخر نحو المناظر الطبيعية عبر الزجاج الخلفي . و كان الزميلان يشاطرانني نفس الشعور

بأننا نعيش يوما تاريخيا له نكهة لا تقاس بشيء ! و كان الشرطيان بين
الفينة والأخرى ، يوجهان إلينا كلمات مازحة مقتضبة ، ثم يعودان إلى
حديثهما كأنهما لا يريدان حرماننا من التمتع بتلك اللحظات السعيدة ...
و بعد حوالي ثلاث ساعات ، دخلنا إلى مدينة مراكش . مدينة جميلة ،
كثيرة الحركة . وزادها رونقا أننا صادفنا ساعة الزوال ، وقت عودة العمال
و الموظفين، و التلاميذ و التلميذات ! كانت الفتيات أغلبهن يرتدين بزات
المدرسة . بعضهن يمشين راجلات ، و أخريات يمتطين الدراجات الهوائية .
كان لمرورهن غاديات كقطعان الغزلان ، أثر عميق على نفوسنا المتعطشة
المحرومة . فراح بعضنا يبني قصورا من الخيال ، و يسرح في دنى السحر
و الفتنة والجمال ... و قفنا أمام أحد المطاعم ، و نزل الشرطيون الأربعة
ليتناولوا الغداء . نحن لا يحق لنا الهبوط طبعاً ، و لكننا كنا سعداء بالبقاء
داخل سجننا المتحرك ، و التفرج على الشارع من خلال النوافذ . كان وجود
سيارة الأمن بهذا المكان يثير فضول بعض الأشخاص من المارة . فكان
أحدهم يقف على مسافة قريبة يستطلع الأمر . بل كان منهم من يجروء على
الاحتكاك بالسيارة عن كثب ، و الاشرئباب بالعنق عليه يـرى ملامحنا .
و كنا بدورنا نحاول أن نثير الانتباه دون الإفراط في المغامرة ، حتى لا نجر
علينا حنق الحراس ... مرت الأمور بسلام ، و عاد الرجال الأربعة و قد جلبوا
لنا « سندوتشات » التقمناها بشراهة الجوع !.. استأنفنا المسير ،
لكن الوجهة التي اتخذها السائق جعلتنا نشعر بالحيرة و الإندهاش! لم
نسلك طريق أكادير كما كنا نحلم ، و إنما أخذنا اتجاه « ورززات » !!
لماذا ورززات ؟؟ و سرعان ما تهدمت القصور ، و راحت الغزلان الشوارد في
الفيافي ، تسابق السراب الهارب! نحن إذن ذاهبون إلى سجن آخر ؟
و تذكرت ما قاله لي الضابط في الدرب لما سألته إن كنت سأصبح حرا !..

و بالفعل وصلنا إلى تلك المدينة قبيل الغروب . توقفت بنا السيارة داخل مفوضية الشرطة ، حيث كان العميد في استقبالنا مع بعض معاونيه . أدخلونا للتو في زنزانة خالية من كل شيء، بعدما سجلوا أسمائنا و تأكدوا من هوياتنا .. وجاء الظلام ، و نزل البرد القارس ، و نحن نفتش الأرض و نلتحف جدران الغرفة ! كيف يمكن أن نرى النوم في وضع كهذا!..

ولما حل الصباح ، كنا جميعا في حالة قصوى من الوهن والانهيار . نادينا على الحارس ، و حاولنا أن نستعطفه و نشكو إليه أمرنا . لكنه اعتذر عن عجزه التام ، و اقترح علينا أن نطلب المسؤول لعرض حالنا عليه ، عله يفعل شيئا . و بالفعل جاء العميد يمشي الهوينا . وقف أمامنا دون أن يلقي السلام . رجل بين الطويل والقصير ، قوي البنية ، صارم النظرة ، يلامس الأربعين ، يميل إلى السمرة ، ويعلو شاربه شنب كثيف شديد السواد . حكينا عليه مصابنا ، معبرين عن تضررنا من شدة البرد والجوع . فأجابنا أنه لا يملك حلا لهذا ، معربا عن أمله أن لا يطول مقامنا عنده :

– فأنتم لستم في فندق حتى يكون لكم غطاء و فراش ، و لا في مطعم حتى تجدوا غذاء ، و إنما أنتم في مفوضية . كل ما يوجد تحت نفوذي مقصف صغير يمكنني أن أقنتي لكم منه سجائر وشيئا من الشاي . و على كل حال ، فأنتم عابرون فقط !

هكذا خاطبنا الرجل ، ثم عاد أدراجه يمشي بخطى وثيدة . و بالفعل ، قضينا ذلك اليوم نحتسي كؤوس الشاي من حين لآخر ، و ندخن سجائر «الأولمبيك» لمن أراد أن يدخن . و من حسن حظنا أن القائم على شؤون المقصف كان أحد المجندين الصحراويين في سلك الشرطة . وقد أبان لنا عن تعاطف كبير . فكان « يختلس » بعض أنواع « البسكوت » و يجلبها لنا مع الشاي والدخان . و كان هناك عنصران صحراويان آخران يعملان

بالمفوضية . أحدهما تحمس كثيرا لرؤيتنا ، وسلم علينا بحرارة . و عاود المجيء إلينا عدة مرات حاملا بعض المأكولات خلسة . أما الآخر فلم يقترب من زنانتنا ، و لم يجرؤ حتى على السلام . كانت المفوضية خالية من المحبوسين غيرنا ، إلا رجلا واحدا . ملامحه صحراوية بلا شك. نحيل الجسم ، طويل القامة ، أسمر اللون . كان يمشي مسرعا جيئة وذهابا في الممر الرابط بين الزنازن ، ويتكلم باللهجة الحسانية كأنه يخاطب شخصا آخر . سأله أحدنا لما مر بالقرب منا :

– ما اسمك ؟

فأجاب بتلقائية دون أن يلتفت إلى مصدر السؤال :

– أنا الطوفان !

حاولنا أن نلفت انتباهه إلينا حتى نتعرف عليه ، لكن الرجل كان في عالم آخر! وجاء ذلك «المجنّد» الذي لم يكلف نفسه حتى السلام علينا ، فأمره بالدخول إلى زنزانه . غير أن « الطوفان » لم يأبه بوجوده ، إذ كان غارقا في حديثه مع « النجوم » . عندها ثارت ثائرة الشرطي المتغطرس ، فانهال على الرجل المسكين باللكمات حتى أسقطه أرضا ، ثم طفق يسدد له الركلات تلو الأخرى حتى أشبع وحشيته المقيتة ، ثم سحله إلى داخل الغرفة و أغلق الباب . كنا نتفرس في ذلك المشهد المأساوي و نتعجب : « أي قلب هذا الذي يسمح لصاحبه أن يعتدي على إنسان كهذا ، غريب الأوطان ، ضعيف البنيان ، فاقد العقل والوجدان !. »

و تذكرت ذلك الشاب «الهندي» الذي كان يتعذب في زنزانه في الرباط ، و يصرخ متوسلا إلى الشرطي بنبرة تدمي الفؤاد ، فلا يجد منه إلا الصفع على الوجه والكلام البذيء .. أي نوع من البشر هؤلاء الذين يتلذذون بالدوس على المغلوبين الضعفاء ؟...

مر اليوم الثاني والثالث ، و نحن لم نزل نراوح زنزانتنا الخالية ، حتى بدأ الشك يتسرب إلى نفوسنا من جديد . و كان الليل أصعب الأوقات علينا ، إذ كان الزمن خريفا ، وكان البرد شديدا . و اضطررت إلى أن أقتسم مع رفيقي وقت الاستفادة من جلبابي الأحمر . فجعلناه كل ليلة من نصيب أحدها . حاولنا أن نستدرج الحراس إلى البوح لنا بسبب المكوث بورززات ، و حتى بالوجهة التي تنتظرنا ، لكنهم كانوا يؤكدون عدم درايتهم بأي شيء في الموضوع . وفي اليوم الخامس ، وفيم كنا نصطلي تحت أشعة الشمس ، في ساحة المخفر ، علنا نخزن شيئا من الدفء نقاوم به برد الليل ، وقفت سيارة «لندروفير» بيضاء بالقرب منا . نزل منها رجلان يلبسان لباسا مدنيا عاديا ، و التحق بهما اثنان من الحراس ، فبدأوا يتهامسون ويسرقون النظر إلينا . فهمنا أن الأمر يهمنا ، و بدأت القلوب تخفق عند الحناجر ، استعدادا لسفر جديد ، و لمرحلة جديدة من المسلسل الطويل ..

و بالفعل ، جاءنا الحارسان و قد بدا عليهما التوتر، فأخبرانا أننا سنرحل . و قدم صاحب المقصف ليودعنا هو أيضا ، و كان متأثرا أكثر من الآخرين . صعدنا إلى السيارة بعد أن تبادلنا السلام مع الحراس وشكرناهم على حسن الضيافة . و الحقيقة أنهم كانوا طيبين معنا بما استطاعوا . وما أن أغلقت أبواب السيارة علينا، حتى تبدلت الأمور ، وانقلبت الأحوال في رمشة عين! استقبلنا الرجلان بغلظة وقساوة شديتين ، وطفقا يربطان يد كل واحد منا بقيد الحديد ، ويشدانها إلى عارضة في سقف السيارة ، و يطبقان على أعيننا العصابات بكل قوة . و انطلقت السيارة في رحلة ما رأينا قبل ذلك أشد منها إيلاما وترويعا . أخذت أشعر كأن منشارا يقطع منكبي الأيمن وذراعي المشدود إلى أعلى السيارة . وأحسست أن عيني ستنفجران من فرط ضغط العصابة . وكانت الآلام تشتد كلما امتدت

الطريق ، وخاصة عندما تنعرج العربة أو تهتز في إحدى الحفر . و ما أكثر الحفر و المنعرجات في طريقنا !. لا أدري كم مكثنا خلال ذلك السفر المهين . لكنه كان مضنيا بشكل لا يطاق ..

و فيم أخذت أشعر بالانهيار الوشيك ، وأنني أصبحت على عتبة الإغماء ، و قد بدأ قلبي يدق و أنفاسي تختنق ، تقلصت سرعة السيارة فجأة ، ثم توقفت بعد بضع دقائق . سمعت صوت باب كبير يفتح على مصراعيه ، فمرت العربة بصعوبة كأنها تخترق نفقا لا يتسع لحجمها . وبعد لحظات قليلة ، أوقفوا السيارة تماما ، وأسكتوا المحرك ، وبقينا ننتظر في ظلمة موحشة و صمت رهيب كمن ينتظر الموت المحقق . فتحوا باب السيارة الخلفي أخيرا و بدأوا يفكون رباطنا وينزلوننا بعنف مقصود . بعد ذلك اقتادونا إلى مكان قريب ، ونزعوا عنا العصابات ، فإذا نحن وسط فرقة من «المخازنية» يحملون هراوات غليظة ، يتقدمهم رجل قصير القامة ، أبيض اللون ، يلبس بذلة مدنية سوداء ، يشكل بهيئته الأنيقة تناقضا صارخا وساخرا مع مظهر جنوده بثيابهم الباهتة ، ووجوههم المغبرة ، كأنهم عصابة من القراصنة أو قطاع الطرق .. لم يكن ذلك الرجل سوى القائد الإداري للبلدة التي ستحتضن المرحلة الجديدة من مسلسل البؤس و الشقاء ...

فتشونا تفتيشا دقيقا لا يخلو من استفزاز ، بعدما تأكدوا من هوياتنا ، ثم فتحوا بابا خشبيا يؤدي إلى داخل البناية . وجدنا أنفسنا في ساحة تتوسط منزلا ضاربا في القدم ، عالية جدرانها الطينية . كل شيء فيه يوحي بالتآكل والنسيان .. أبواب كثيرة موصدة ، و ثياب مرقعة ملقاة على الأرض ، وصمت موحش كصمت المقابر . ساقنا ثلاثة من الحراس إلى إحدى زوايا البناية ، حيث فتحوا بابا صغيرا ، وأغلقوه خلفنا دون كلام

، ثم انصرفوا . أخذنا نتلمس أعضاءنا المنهكة من عناء رحلة الموت ، و
نتمعن في غرفتنا الجديدة بانبهار شديد . غرفة ضيقة ، جدرانها مطلية
بسواد قديم ، مما يوحي أنها كانت تستغل كمطبخ ، أو بالأحرى كمحرقة
في يوم من الأيام . سقفها صنع من قصب وخشب ، وقد تكسرت بعض
أخشابه و آلت إلى السقوط . وبينما نحن نتأمل هذا الديكور الغريب ،
سمعنا أصواتا نسائية فاترة تتخلل السكون من حين لآخر . هرعنا نحو
الباب وأخذنا نرهف السمع ونبحث عن شقوق علنا نبصر من خلالها ما يدور
في الساحة . وبالفعل رأينا نساء هزيلات ، بل هن أشباح نساء فقط ، حالهن
يثير الرأفة والرتاء ، ولباسهن كأنما مرت عليه السنون .. كن يتنادين في ما
بينهن في تحاور هادف موجه إلينا ، كأنهن يقلن لنا : « هذه مباركة ، و تلك
الغالية ، ودماحة و المامية »...

تعرف عليهن صديقاى (إذ كانوا جميعهم تقريبا من مدينة طنطان) .

مرت إحداهن بالقرب من بابنا وقالت :

– مرحبا بالقادمين !

وتلتها أخرى :

– ألا تعرفوننا بأسمائكم ؟

وجاءت ثالثة بالنبا العظيم :

– احذروا ، سيعذبونكم كثيرا ، و لكن لا بأس . تلکم مرحلة مررنا منها

جميعا ، غير أن ذلك لم ينل من عزمنا ولا من إرادتنا . هنا لا شيء ينفع إلا

الصمود !

هكذا إذن سنخضع للتعذيب من جديد ؟ ألم يكف ما تحملناه في الدرب من

أصناف الويل والإذلال ؟ ألم ينته البحث بعد ؟ ..

و بعد حوالي نصف ساعة ، عادت النساء إلى غرفتهن . و رأينا الحراس

يفتحون أبوابا عديدة لتخرج منها دفعات من الرجال من مختلف الأعمار . هذه الساحة التي كانت خالية مقفرة ، أصبحت تعج بالحركة والنشاط ! لكن صدمتنا كانت كبيرة : العشرات من الرجال يغدون ويروحون في هذا المكان المسدود ، و لا يكادون يتكلمون إلا همسا . رؤوسهم منحنية كالسنابل المثقلة ، وثيابهم رثة مرقعة ، وكل الذين تعرفنا عليهم قد تغيرت ملامحهم من فرط الهزال ! وكان منهم من عجز عن المشي فأخذ يزحف على أربع ! تقدم أحد الشبان واقترب من الباب قائلا :

– مرحبا بكم !

و انصرف مسرعا . ومر آخر وقال :

– نحن هنا منذ شهر يوليو . عددنا مائة وعشرون . توفي منا أربعة عشر إلى حد الساعة .

ماذا يقول هذا؟ أربعة عشر فردا توفوا خلال أربعة أشهر ؟! لقد كان هذا الرقم كافيا لأن يعطينا صورة واضحة عن فظاعة الموقف وعما ينتظرنا من مفاجآت !.. وجاء دور الرجال ليدخلوا في هدوء إلى مساكنهم ، خوفا من جنود يشبهون جنود سليمان ...

و ما أن سمعنا الأبواب تغلق تباعا حتى اندفعنا بسرعة لننكمش في أبعد ركنة من الزنزانة السوداء . فقد شعرنا أن الوقت قد حان ليأتي دورنا . فتح بابنا بقوة ، ودخل علينا أحد الحراس وقد حمل هراوته الغليظة ، وبقي آخر عند المدخل يمسك بيده نفس السلاح . أشارا إلينا أن نأخذ الطعام ، ثم أغلقا الباب وتركنا نتناول أول وجبة غداء في «دارنا» الجديدة . كانت مقدمة في ثلاثة صحون من القصدير ، قديمة قدم الزمن! والأكلة عبارة عن قطعة قرع في كل إناء ، على قدر أنملة الأصبع ، تسبح في قليل من الماء يحسبونه «مرقا» وقد تعد فيه نقط الزيت واحدة واحدة ! و ما هي إلا

هنيهة حتى بدأ لون «المرق» يتغير بقدرة قادر ، آخدا في السواد ! لم نتمالك أنفسنا حتى طفقنا نقهقه ونقهقه ، ساخرين من هذه الأطباق العجيبة ! أما قطع الخبز فكانت غير معجونة بما فيه الكفاية ، ولا هي تخمرت ولا تم طهيها بالكامل ! ولما انقشعت عنا نوبة الضحك المجنون تلك ، عدنا إلى «صوابنا» لنتفكر في جسامة المأساة التي نحن فيها . لسنا في زمن الضحك والسخرية ! فهذه الأطباق كانت وراء وفاة أربعة عشر شهيدا! وإذا استمر الوضع هكذا ، فسوف يأتي الدور على كل من في الدار ، إلا إذا حدثت معجزة ! ونحن نضحك على كل هذا ؟! أنا الذي كنت أحسب أن «الدرب» كان بمثابة الدرك الأسفل من النار ، أضحيت الآن أذكره بنوع من الحنين! ...

مر ذلك النهار دون مفاجأة تذكر . وعند حلول المساء ، قدموا لنا وجبة العشاء ، وقد كانت عبارة عن لقمة من الشعرية المكورة كالعجين ، لا طعم لها ولا رائحة ، والتي ما فتئت أن أسودت هي بدورها بفعل الصدا . هل نسخر منها كما سخرنا من قطعة القرع ؟ لا ، لم يترك لنا مجال لذلك! فقد جن الليل بسرعة ، وحل الظلام الدامس ليزيد الوضع قتامة . ولاحظنا أن السجن لا يتوفر على كهرباء! ورأينا من خلال الشقوق في الباب مصباحا «بتروليا» يرسل ضوءا فاترا من إحدى الزوايا البعيدة . حتى المصباح مصاب بالرعب كأنه يسمع ويرى ما يجري حوله من ترويع وتجويع!.

فتح الباب الخارجي ، وسمعنا وقع أقدام ثقيلة تقترب من زنانتنا بسرعة . فتحوا بابنا وصاح أحدهم :

– من منكم كان خليفة قائد ؟

تقدم أحد صاحبي وقال :

– أنا !

– تعال إذن ، سترتقي إلى رتبة قائد ممتاز!

اقتادوه معهم ، واختفى عنا في الظلام . وبعد برهة ، سمعناهم ينهالون عليه بهراواتهم «العظيمة» في وقع متلاحق كوقع المطر الغزير . وعادوا يجرونه مع الأرض إلى أن رموا به جثة هامدة داخل الغرفة . ثم صرخ الجندي :

- أين الآخر ؟

فتقدمت نحوهم و مضوا يهرولون بي كعصابة من اللصوص فرت بغنيمتها ، إلى أن دفعوني وسط «سقيفة العمليات» ، والتفوا حولي كالذئاب الجائعة . تساقطت علي الضربات من كل صوب ، قوية ، موجعة ، متعاقبة ، تخنق الأنفاس . سقطت أرضا ولم أعد أقوى على الصراخ . عندها أوقفوني بعنف ودفعوني خارج السقيفة، وتوجهت مسرعا نحو الزنانة ، والضربات تلاحقني حتى دخلت . استلقيت في إحدى الزوايا وقد ذهبوا بثالثنا ليأخذ نصيبه طبقا لمبدأ «المساواة وتكافؤ الفرص»... ولما انتهت مراسم الاستقبال هاته وأغلق الباب خلفنا ، بتنا نتأوه من شدة الألم ، ونتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، حتى غلب علينا النوم من فرط العياء والإرهاق ...

عظماء في وجه الموت

أفقنا في الصباح الباكر على أصوات الطيور تشقشق في براءة ظالمة ! كيف لها أن تغرد وسط العذاب والرعب والموت ، تماما كما لو أنها تصدح في جنة فيحاء ، أشجارها باسقة ، وأزهارها متفتحة توزع البسمات ، وتزرع البهجة والحبور في الحياة ! أيتها العصفير الجميلة ، ابعدي عن ساحتنا ولا تنشدي في هذا المكان البائس ! اذهبي إلى هنالك ، حيث المزارع والسواقي ، وحلقي في الأجواء البعيدة وارقصي في السماء . لكن احذري أن ينالك بطش هذه الوحوش البشرية المسعورة. إنهم إن يظفروا بك يذيقوك من العذاب ألوانا وألوانا!..

حاولت أن أتحرك من مكاني ، ولكنني لم أقدر . فقد كانت كل أعضائي منهكة شديدة الإيلام. وكنت أشعر بالوهن القاتل . وكذلك سمعت رفيقي يشكوان . قال أحدهما :

– لقد نصحنا الإخوة بالأمس بعدم الاستسلام للعجز ، والعمل على التدليك ما استطعنا .

وهكذا بدأ كل واحد منا يساعد الآخر في عمليات ترويض بدني ، وقد تفاجأنا بكثرة الكدمات المنتشرة في جلودنا ، كأنما نهشتنا جيوش من العقارب! وأخذت الحياة تعود شيئا فشيئا إلى عضلاتنا الممزقة ومفاصلنا المشلولة . وجاء الفطور الذي لم يكن يحتوي إلا على كوب «قصديري» من

الماء المحلى ، ممزوجا بالقليل من القهوة السوداء الخالية من نكهة البن الأصيل . هكذا حفظنا في أقل من أربع وعشرين ساعة برنامج الإطعام الرسمي في هذا المعتقل الرهيب . ثلاث وجبات يجمع بينها عامل مشترك دائم : السوداء! وأي شيء غير السوداء يلون الحياة هنا ؟ : الغرفة سوداء ، والطعام أسود ، و ظلام الليل أسود ، و حتى الأفق الذي لا يلوح ، يغطيه السوداء!.. مر ذلك اليوم دون جديد يذكر ، ما عدا أننا استطعنا التعرف على أسماء جديدة من المجموعة . وتلقينا من الإخوة لائحة الأفراد المتوفين . لم أعرف من تلك القائمة إلا اسمين فقط : « الشيخ حمادي وحمدي ابوزيد الرباني » . ولا أخفي أنني تأثرت كثيرا لوفاتهما ، لما عرفت في الرجلين من سمات النبل والشهامة وحسن الخلق . « الشيخ حمادي » لم أجالسه كثيرا ، لكنه كان ذائع الصيت . فقد كان رجلا طيبا ، عصاميا و محبوبا ، معروفا بالبساطة ونكران الذات . أما « حمدي أبوزيد » فقد كان لي أحد أصدقاء الطفولة والشباب . كان شابا طموحا وشجاعا . وكان قوي البنية ، متقد الحيوية ، بعيد النظر . التقيت به لآخر مرة قبل اعتقالنا بأيام قليلة ، وكان مستاء كثيرا بسبب تجريده من جواز سفره ، وحرمانه من الذهاب إلى فرنسا ، بحيث كان عاملا هناك...

حل الليل ، ونزل الظلام ، فبتنا نترقب وعيوننا شاخصة إلى الخارج ، من خلال شقوق الباب . كانت الساحة تغرق في حلقة مخيفة ، رغم وجود المصباح البترولي في مكانه المعتاد . وكنا ننتظر وصول العفاريات في زيارة ليلية أخرى ، لننتلقى « حصة تكوينية » مثل التي تلقيناها البارحة . لكنهم تغيبوا عن الموعد لحسن حظنا! (حسن حظنا!؟). هل انتهت مرحلة التدريب وأصبحنا أعضاء رسميين ؟ أم هي مجرد استراحة ؟ لنترك التأويلات جانبا ، ولنغتنم هذه الهدنة لنقضي ليلتنا الثانية في سلام ... ويبدو أن

هؤلاء القوم متمسكون بقيم «حسن الضيافة». فقد عملوا على احترام مبدأ «الأيام الثلاثة»، قبل أن يأتي رئيسهم في النهاية ليصدر قرار الإلحاق بالمجموعة :

– ها أنتم ستلتحقون بإخوانكم . ولكن ، قسما يا أبناء الحرام ، لو أسمع عنكم أبسط حركة خارجة عن الحدود ، لسوف أسويكم مع الأرض . الماضي لا يعاد ، هل فهمتم ؟

على إثر ذلك الخطاب الناري ، تم ضمنا إلى إخواننا . كان ذلك عشية يوم الفاتح من دجنبر من السنة السادسة والسبعين . غمرتنا فرحة عارمة ، وكأننا التقينا بعائلاتنا ! أصبحنا مع ثلة من الشباب في غرفة لا تتسع لأكثر من خمسة أفراد ، ونحن ستة عشر ! ولكن ما عيب الازدحام إذا كنت مع إخوان يحبونك وتحبهم ، وتطمئنون بعضكم لبعض ، في ظروف تتطلب أقصى درجات التلاحم والتآزر؟.. كانت ليلة عجيبة ، نسينا خلالها كل شيء ، نسينا الواقع ، ونسينا أنفسنا ! وذهب الحماس بالبعض إلى أن بدأ يغني تعبيرا عن فرحة اللقاء . واستمر حفل الاستقبال المصغر إلى وقت متأخر من الليل . وبحلول الصباح ، جاء الفطور ، وسمح بعده بخروج الرجال . وكان اللقاء الموسع مع باقي المجموعة . كان العناق حارا ، وكانت البهجة غامرة ! لكن شبخ البؤس والتعاسة كان أيضا حاضرا بقوة : فالناس منهكون هزيلون ، كأنهم لبثوا في السجن سنين وسنين ! منهم المراهقون والشباب والمسنون . ومنهم البدو والحضر ، والأميون والمثقفون وأشباههم . عينة من المجتمع الصحراوي بكل فئاته ! وقليل منهم من لا يزال يتمتع بكامل قدراته .. فمن لم يكن يزحف ، كان يمشي بصعوبة . وكان بعضهم في حالة عجز تام ، والبعض في شبه احتضار!.. ومع ذلك كانت مظاهر الحياة موجودة : فهذه مجموعة تقف تحت أشعة الشمس لتأخذ قسطها من الدفء

و هذه فرقة تجمع الماء في أوعية بلاستيكية ، وتضعها جنب الحائط بغية تسخينها بحرارة الشمس، لتأخذ حماما دافئا ! وآخرون يقومون بتصبين ملابسهم أو ملابس زملائهم من المرضى والعاجزين . وكان لزاما علينا نحن الوافدين الجدد ، أن نزور أولئك المرضى الذين أصبحوا في حالة صحية متدهورة . كان من بينهم شيخ لم أكد أتعرف عليه لولا أن طلب مني الجلوس بجانبه ، فاخذ بيدي وقال لي بصوت لا يكاد يسمع من شدة الوهن :

– أنا «علوة الطاهر»، أبوك صديقي وابن عمي . ألا تذكرني ؟

– بلى ، أذكرك يا عم ، لكن طول العهد غير ملامحك قليلا .

والحقيقة أن شدة الهزال هي التي غيرت صورته بالكامل . فقد أصبح عبارة عن هيكل عظمي يتنفس . وكان بطنه منتفخا بشكل مثير .

سألته عن صحته ، فأجابني بنبرة يملؤها الإيمان والثقة :

– واللّه لن يصيبنا إلّا ما كتب اللّه لنا . نحن مظلومون ، ونسأل اللّه أن ينتقم لنا من الظالمين. فأنا كنت في صحة جيدة ، حتى اعتدى علي أحد هؤلاء الجبابرة ورفسني بقدمه على البطن ، وها أنت ترى !..

تركته و هو يود لو طال بقائي معه . و لكن الوقت ضيق ، و المرضى كثيرون . و كان في نفس الغرفة رجل اسمه «عبيد السهيلي». حييته و مكثت معه دقائق معدودة ، و انصرفت لزيارة الآخرين :

«بوبة الكوري ، البلال الحبيب ، محمد ماء العينين ، سلامة أبا الحسن ، عياد الضميري...»

كلهم كانوا في حالة من البؤس الشديد ، لا مأكّل يناسب وضعهم الصحي ، و لا فراش يليق بأجساد بقي منها جلد يكسو العظام ، و لا شروط نظافة تحمي هذه الأجساد المنخورة من التعفن . أما الدواء فلا سبيل حتى

لذكره ! شعرت بمرارة عميقة وأنا أمر على هؤلاء الرجال الواقفين على عتبة الموت ، وأسألهم واحدا واحدا. لكن الذي أدهشني هو ارتفاع معنوياتهم ، ورسوخ إيمانهم . كانوا كلهم واعين بمصيرهم ، ومع ذلك كانوا عظماء في وجه هذا المصير! بل كانوا واثقين من الشهادة ، فرحين مستبشرين بها ، وحجتهم في ذلك أنهم أبرياء مظلومون!...

انتهت ساعة «الاستراحة» ، وجاء الحراس مؤذنين بالدخول إلى الزنازن . التحقت بمقر سكناي الجديد ، غرفة «الستة عشر» كما أصبحت تعرف . غرفة تقع في ركنة من أركان البناية . لا نوافذ لها كما هو حال أغلب الزنازن الأخرى . خالية من كل شيء ، إلا من هذه الفرقة من الشباب القادمين جلهم من مدينة الطنطان . الفراش عبارة عن بطانية صغيرة لكل واحد . أما الغطاء فلا وجود له «عندهم» ، فهو يعد من الكماليات! عندما يغلق الباب ، فهناك وعاء بلاستيكي من سعة خمس لترات ، «قطع رأسه» ليلعب دور الكنيف . إذا اضطررت أن تقضي حاجتك ، فما عليك إلا أن تتفضل وتقوم بذلك على مرأى ومسمع الزملاء! كان هذا الموقف من أشد الأمور التي واجهتني في البداية . إلا أن الرفاق الذين سبقونا بالتجربة عملوا على مساعدتنا حتى تكيفنا مع الواقع بمرور الأيام .. في الغالب كنا نكتفي بالتبول داخل الغرفة ، ونرغم أنفسنا على انتظار فتح الأبواب ، لنكمل ما تبقى من عملية الإفراف .. لكن ، عندما يصاب أحدنا بالإسهال ، فإننا نضطر إلى التسليم بالضرورة . آنذاك تعم الزنزانة رائحة لا تطاق ، تدمع الأعين ، وتحرق الأنوف ، وتثير الغثيان والدوار . ولكن التعود على الأشياء يكسب القدرة على التحمل . لقد بدأنا نطيق أمورا كثيرة كان مجرد الحديث فيها يسبب لنا التقزز والإشمئزاز .. تأقلمنا مع الأوساخ وانعدام الماء والهواء. وتكيفنا مع الازدحام وسط الحرارة المفرطة في زنزانة ضيقة مغلقة .

وكنا نرغم في أحيان كثيرة على إدخال أيدينا وأذرعنا إلى الآباط ، قصد تفريغ حفر الصرف الصحي المختنقة بالنفائات البشرية المكدسة . كل ذلك بوسائلنا الخاصة طبعا . فهم لا يمدوننا بأبسط الأدوات اللازمة للقيام بذلك العمل الشاق . وهناك فئران ضخمة تسكن في السقوف بالنهار . إذا سمعت حركاتها الصاخبة تخالها أكباشا متناطحة . أما بالليل فهي تهبط علينا وتبيت تنغص نومنا وتعكر أحلامنا ، بل حياتنا الشقية أصلا ! وكان للقمل حضور فاعل طبعا في هذا المشهد القاتم . تلك الساعة التي كانت تمنح لنا للإستراحة ، كان القمل يأخذ منها حيزا مهما :نقف تحت أشعة الشمس وننشر بعض الملابس والفراش ،فتبدأ الحشرات تتحرك تحت تأثير الحرارة ، ثم نشرع في عملية الاصطياد . ويأخذ كل واحد يجد ويجتهد للقضاء على أكبر قدر من الكائنات الخبيثة ، حتى يمل وتحمر أظافره وكأنما صبغت بأحمر الشفاه . وما هو بأحمر الشفاه ، ولكنه دم القمل ، بل دمنا المسروق !..

في الساحة يسمح لنا بالحركة المحدودة ، والكلام بصوت منخفض . أما النظر إلى أعلى فهو محظور . الحراس الواقفون على السطوح يرقبون كل شيء . وإذا سولت لسجين نفسه أن يرفع رأسه إلى السماء ، فتلك «وقاحة» ما بعدها وقاحة ! وسوف يؤدي عنها غرامة باهظة الثمن ! يكفي أن يشير إليه الحارس بالبنان ، حتى ولو لم ينظر إلى السماء ، ليدخل عليه الزبانية ويفعلوا به ما يفعلون ...

حادثة القلم

مرت الأيام تترى ، كئيبة عصبية ، والأوضاع تزداد سوءا و قتامة .
التغذية باتت رديئة لا تسد الرمق ، ولا تفي بأبسط حاجيات أجسام تذوب
رويدا رويدا ، وتسير نحو مصيرها المحتوم . وتوالى سقوط الضحايا دون أن
يثير أدنى اهتمام لدى جهاز الحراسة . كانت أول حالة وفاة شهدناها نحن
الوافدون الثلاثة هي حالة الشيخ «علوة الطاهر» . كان لوفاته وقع كبير في
نفوس الجميع . فقد كان الشيخ معروفا بحب الدعابة والمزاح رغم معاناته
الشديدة . ودعناه في جو من الخشوع والإجلال . إلا أن الإصرار على الصمود
والتصميم على التحدي كان هو الطابع السائد . الجميع كان يدرك خطورة
الموقف . لكن ماذا يفيد الإنهزام والموت قبل الأجل ؟ المحكومون بالإعدام
يظل لديهم بصيص يتعلقون به حتى اللحظة الأخيرة . فقد يحدث أمر
ما ، غير متوقع ، وقد تأتي مفاجأة من السماء وتقلب الدنيا فتجعل عاليها
سافلها ، ويخيب سعي الظالمين .. إنه الأمل في الحياة والتمسك بها ، يجعل
الإنسان يحلم بالمعجزات ويصدق أحلامه ، وقد تتحقق الأحلام ! ..

في خضم ذلك الجو العصيب ، كان لا بد أن نبتكر أساليب لسد الفراغ القاتل
، خصوصا عندما تغلق الأبواب خلفنا داخل الزنازن الضيقة . بدأنا في غرفة
الستة عشر ننظم « سهرات » مصغرة تتخللها مسابقات شعرية و ثقافية
و بعض الأغاني والسكتشات البسيطة . وشرعنا ننظم بعض الألعاب

المتاحة مثل لعبة الشطرنج الصحراوية (ضامة) ونخوض فيها دوريات يدوم التسلي عليها إلى أن يحول دونها الظلام . وبما أن المستويات الدراسية كانت متفاوتة ، فقد قررنا تنظيم حصص تدريسية لفائدة ذوي المستويات الدنيا . وهكذا أصبحنا نملأ الفراغ بأمور التعليم والتعلم . وولدت الحاجة لدينا رغبة في البحث عن تطوير الوسائل الموجودة . بدأنا باستعمال قطع الجبس ، نحصل عليها من جوانب الجدران أو من سقف الزنزانة كطبشير نكتب بها على أرضية الغرفة أو على الواجهة الداخلية للباب . وتوصلنا بعد ذلك إلى طريقة أكثر نجاعة وأكثر سرية خصوصا ، علما أن اكتشاف ممارسة الكتابة من طرف الحراسة سيجلب علينا الويل كل الويل ! هم يتربصون بنا أدنى الفرص ، ليذكرونا بلغة العصا الغليظة ، فكيف إذا وجدوا ذريعة كهذه ؟ أولم يكونوا في الأيام الأولى يقتحمون السجن في جنح الليل ، بلا سبب ، يأخذون « عشرة » من السجناء فيشبعونهم ضربا وركلا ، ثم يذهبون فاكهين ؟!.. اخترعنا إذن وسيلة الكتابة بالصابون . فقد وجدنا أنه يمكن استعمال قطع الصابون كأدوات للخط على بعض أنواع القماش . وكان لهذا الاكتشاف دور أساسي في إحداث ثورة ثقافية حقيقية داخل السجن! وفي الحقيقة ، لست أدري بالضبط من أية زنزانة انطلق هذا الاختراع العظيم ، لكنه انتشر بسرعة وأصبح ممارسا على صعيد السجن كله ، من دون أن يعرف من هو صاحب الفكرة الأولى، فيعترف له بحق «الملكية الفكرية» ويعطى له ما يستحقه من تكريم ! وقد كان لهذا الحدث بلا شك ، دور كبير أيضا في تلطيف جو الكآبة السائد ، وفي قتل بعض الوقت الذي كان يمر علينا ببطء شديد.. وأصبحنا بهذا العمل نشعر أننا نوّدي رسالة علمية ذات قيمة أخلاقية ومعنوية عظيمة في عالمنا الضيق ذاك ...

إلا أن حادثا مروعا سيقضي على تلك الثورة في مهدها ، وسيعصف بذلك

المكسب الكبير ويردنا خطوات بعيدة إلى الوراء ! كانت مجموعة من الأقلام توجد بغرفة خصصها الحراس كمستودع لبعض المحجوزات من أمتعة المعتقلين . كل ما في تلك الحجرة لم يكن ذا قيمة كبيرة بالنسبة لنا ، سوى أشياء ثلاثة : الكتب ، وهي مطلوبة طبعاً ، ونحن في حاجة إليها ، لكن الحصول عليها لن يتأتى إلا إذا سمح الحراس بذلك . والأقلام ، وقد نحصل عليها بدون إذن الحراس ، إنما الأمر يتطلب كثيراً من المغامرة والسرية . وقد سبق لبعض الإخوة أن تمكنوا من جلب قلمين أو ثلاثة لما دعاهم الجنود لكنس المستودع ونفض الغبار عن الأمتعة . وهناك عنصر ثالث أثار اهتمامنا في تلك الغرفة ، بل كان يثير تشاؤمنا وامتعضنا العميق . إنها قطعة كبيرة من القماش الأبيض الملفوف ، معدة لاقطاع أكفان موتانا منها . كنا نرى ذلك الثوب الأبيض كل يوم من شباك المستودع . وكأنهم وضعوه عنوة في الواجهة ليقولوا لنا إن الموت أقرب من الحياة ...

اتفق الإخوان أن ينفذوا عملية اقتحام على المستودع من أجل الحصول على أحد الأقلام . وفعلوا ، تنبهوا إلى أن باب الغرفة لم يكن محكم الإغلاق في ذلك اليوم . ولم يخطر ببال أحد أن رئيس الفرقة تركه كذلك عن قصد ليسقطنا جميعاً في فخ واحد ! فهو تفتن إلى أن عدد الأقلام بدأ يتناقص ، وأراد أن يتأكد ، بتدبير تلك المكيدة النكراء !

دخل أحد الأفراد واختطف القلم بعد أن أشار له زملاء يرقبون الحارس الواقف على السطح ... وما هي إلا دقائق حتى عاد رئيس العصابة ليتفقد المستودع ، وليخلص إلى النتيجة التي خطط لها مسبقاً :

– إذن سرقتم القلم يا أبناء اللصوص ..!

هجموا علينا داخل الزنزانة بأسلحتهم المتنوعة : عصي وهراوات وسياط مطاطية و أسلاك كهربائية . وافترسونا افتراس الذئاب الضارية . وقد

خصصوا للثلاثة الجدد حصة وافرة من العقوبة ، زاعمين أن الشر كل الشر جاء مع العناصر الثلاثة ! وكان من نتائج ذلك أن أصيب صديقي «محمد» في رأسه إصابة قوية ، بات على إثرها يشكو من ألم حاد ، ما فتئ أن تحول إلى فقدان للشعور . فإذا به تارة يضحك من الأعماق ، وتارة يذرف الدموع على الخدين ، وأخرى يغني ، ويهذي فيختلط في هذيانه الماضي بالحاضر .. ولم يعد محمد من رحلته وراء السحاب إلا بعد ثمان وأربعين ساعة خشنا خلالها أن تكون رحلة بلا عودة !..

منذ ذلك اليوم (الثامن من مارس من السنة السابعة والسبعين) ، عزلت مجموعة الستة عشر عن بقية المجموعة . وحرمنا من الخروج إلا عند أوقات الوجبات من أجل جلب الطعام وإفراغ الأوساخ . وكان ذلك يتم تحت وابل الضربات تتساقط علينا من كل صوب . أصبحت حياتنا جحيما في جحيم . وأصبحنا نتعرض كل يوم لأصناف التنكيل والإهانة . استمرت الأمور على هذه الحال أربعة أشهر كاملة ، بأيامها ولياليها . ولم يعف عنا إلا بعدما وصلنا درجة من الانهيار الصحي والمعنوي العميق . والحقيقة أن بقية المجموعة لم يكونوا أحسن حالا منا ، رغم ما عانيناه في الشهور الأربعة . فقد استمر سقوط الضحايا في تلك الفترة : توفي «عبيد السهيلي ، وبوبة الكـوري و عياد الضميري و البتول سيدي ، ومومن حمدناه».

كان يوم عودتنا إلى المجموعة من جديد يوما تاريخيا مشهودا . فرحة لا تضاهى ، بل إحساس بالخروج من الموت إلى الحياة ! كان ذلك في السابع من الشهر السابع من السنة السابعة والسبعين ! هكذا أصبحنا نتفاءل بذلك اليوم ذي «السبعات الأربع»!

مرت الأيام والشهور قاسية عصبية ، لكن اندماجنا داخل مجتمعنا الصغير منحنا أملا جديدا ونفخ فينا روحا جديدة . وعدنا إلى جو الدراسة وسط

سرية مطلقة . ليس لأننا نسينا أو تجاوزنا مجزرة «حادثة القلم»، ولكن لنثبت تحديدنا وصمودنا ، ولنواصل قيامنا بذلك الدور الذي أصبحت قناعتنا بوجوبه راسخة متينة . في ظروف كهذه ، يكون للروح الجماعية نصيب أساسي في المحافظة على توازن المجموعة والتحامها . وكان وجود المرضى عاملا رئيسيا في إحياء روح التضامن وخلق جو من التكافل والتآزر . و قد أدى الشباب في هذا المجال رسالة نبيلة يسجلها لهم التاريخ . فكان المرضى يحظون بالكثير من العناية ، فتنظف ملابسهم و فراشهم ، ويقدم لهم ما توفر من طعام رغم ندرته ، ويعاملون بلطف فائق . ولن يكون من الإنصاف أن يخوض أحد في هذا الموضوع ، دون الوقوف عند اسم رجل ترك بصمته ناصعة في مجال التضحية و نكران الذات . ما كانت له ثقافة ، و لا ولج باب مدرسة في أحد الأيام . لكنه كان بحرا زاخرا بقيم النبل و الكرم و الشهامة . كان من الأوائل الذين دخلوا إلى هذا السجن البغيض . ومنذ ذلك الحين ، سخر نفسه لخدمة الآخرين ، و تطوع للتكفل بالمرضى بلا تردد و لا تضايق : يسقي هذا ، ويطعم ذاك ، و ينظف آخر، ويصل الليل بالنهار ، حتى ذابت شمعته وانطفأت جذوته ، و التحق بأولئك الذين كان لهم الأخ المواسي ، و الطبيب الآسي ، فشهدوا له بكل ذلك ، و نال الشهادة عن جدارة و استحقاق . إنه البطل الشهيد « المهدي أحمد بارا » ..

كانت أغلب الحالات المرضية ناجمة عن سوء التغذية . وكانت أعراضها تتشابه إلى حد بعيد : تظهر أول علامة في أحد الأطراف السفلى ، وغالبا في أعلى الساق . فيلاحظ الشخص بروز نتوء تحت الجلد بحجم حبة حمص صغيرة ، بدون ألم في البداية . ويبدأ الجلد يأخذ لونا بنفسجيا على مستوى تلك الحبة . ثم تأخذ الساق في التورم شيئا فشيئا ، و تأخذ الحبة

في الذوبان ، تاركة مكانها لرضة تتسع رقعتها مع ازدياد التورم . ويبدأ الألم في الساق عند الوقوف ، ليضطر المريض على ملازمة الفراش . وبعد أيام ، يلاحظ على الشخص هزال شديد وتضعف شهيته فيعزف عن الطعام (وأي طعام؟) . وتختتم المأساة بإسهال شديد تصاحبه رائحة كريهة . في تلك المرحلة تصعب عودة المريض إلى الحياة ، و يصبح موته شبه محقق . أما في المراحل الأولى قبل ظهور الإسهال ، فإن الشفاء يتأتى بسهولة مذهلة : بحقنة واحدة من «فيتامين ب 12» ، أو بتناول حبات من التمر لمدة ثلاثة أيام !! كان الجهاز المسؤول عن السجن يعرف هذه الوصفة ويجيد استعمالها . فقد حدث أن استقدموا ممرضا عدة مرات ، كما حدث أن جلبوا كميات محدودة من التمر كان لها نفس الأثر السحري على المرض . لكنهم لم يكونوا يقدمون على ذلك إلا عندما يصبح عدد القاعدين أكثر من الواقفين ، وبعد أن يكون المرض قد حصد « ما يكفي من الضحايا » ! إنهم يتحكمون في وتيرة « القتل الممنهج ! »

مضى أزيد من سنتين و نحن لا نملك من الثياب إلا ما دخلنا به إلى السجن . تمزقت الملابس فوق ظهورنا ، والتجأنا إلى عمليات الترقيع والصيانة . وأصبح البعض منا شبه عار لا يكاد يستر عورته ، والبعض يلبس أسمالا مرقعة ! ولم يبق لنا من الموارد إلا لباس الأموات . عندما يتوفى أحدها ، يتولى أقرب الناس إليه ملابسه إن هو ترك شيئا ، فيعرضها للبيع . وعلى الذي تسلم تلك القطعة أن يتعهد بأداء ثمنها إلى عائلة الفقيد بمجرد خروجه من السجن إن كتب له ذلك .

عصر النهضة

في أواخر سنة ثمان وسبعين وتسعمائة و ألف ، فوجئنا بأول زيارة لمسؤول السجن، وهو القائد الإقليمي «للقوات المساعدة» بورزقات . كان عدد الشهداء قد تجاوز العشرين ، وعدد المرضى الذين دخلوا لائحة الخطر كذلك . مر القبطان على الزنازن ، الواحدة تلو الأخرى . كان رجلا متقدما في السن ، هادئا ، وديعا ، كأنه لا يعرف شيئا عن القساوة ، وكأنه لا يرتبط بما يمارس في هذه المؤسسة بأي ارتباط ! كان في كل غرفة يستمع إلى شخص أو اثنين بامعان واهتمام . اطلع في تلك الزيارة على كل تفاصيل المعاناة : سوء المأكّل ، انعدام الملابس والفراش ، الازدحام في الزنازن الملتهبة ، انعدام الهواء ، وكثرة الأوساخ وغياب الدواء ... وبما أن النقيب بدا منفتحا على كل المطالب ، أطلق المعتقلون العنان لكل ما يخالجه من هموم وأشجان . فاشتكوا من الوضعية الغامضة التي هم فيها ، متسائلين عن مصيرهم وعن إمكانية محاكمتهم ، حتى ولو أدى بهم الأمر إلى الحكم بالإعدام ! أبدى المسؤول تفهما كبيرا للمطالب «العادية» ، ووعده بتلبية الكثير منها . « أما الأمور المتعلقة بالمصير وبالمحاكمة ، فتلك أشياء تتجاوزني ، ولا أملك لكم جوابا عنها! »...

لمسنا بعد تلك الزيارة انفراجا ملحوظا في واقعنا اليومي : أصبحنا نتمتع بوقت أطول للخروج إلى الساحة (وكانوا قبل ذلك قد هياؤا جناحا خاصا

للنساء) . ولأول مرة دخل عالمنا شيء « يقال له الحليب»!. وظهرت بعض الخضر « تزامح » قطعة القرع ، وفي طليعتها البطاطس والجزر . وقد أدى ذلك الظهور بأحدنا إلى أن تغنى فرحة بقدم البطاطس ، بأبيات حسانية مرحلة .. و رأينا قطعة صغيرة من اللحم تزين أطباقنا في أحد أيام الأسبوع ! بل و أصبح كل فرد يحصل على نصف علبة سردين مرة في الأسبوع كذلك !

أليست هذه نقلة نوعية بالغة الأهمية ؟ لا شك أن أمرا عظيما حدث فكان وراء هذا التحول السريع!. و في أحد الأيام الموالية ، فتح باب السجن ، وبدأ الحراس يدخلون أكياسا كبيرة ويجمعونها في البهو . ثم طفقوا يفتحونها وينشرون أشياء بداخلها . شيء لا يصدق : إنها الملابس ! ! حصل كل واحد على سروال وقميص ومعطف . ليست طبعا ثيابا جديدة ، وإنما ملابس مستعملة مستوردة ، وأغلبها ثياب نسائية . لكننا كنا سعداء بها أيما سعادة! وأي فرق في النهاية بين لباس الرجال والنساء ؟ أليس «المقصود من الكرة الجري؟» مضى ذلك اليوم ونحن نعيش جوا رائعا كما لو كنا في عيد . هذا يقيس ثيابه ، وذلك يتقايض مع صاحبه ، وآخرون يتحدثون على هامش الحدث ، حول هذا التحول الكبير الذي يعرفه السجن ، ويتساءلون عن الدوافع ، ويتشعبون في التأويلات ، حتى ذهب البعض بعيدا في التفاؤل ، فأخذ يجزم أن موعد الخلاص بات على الأبواب ! وزاد من تفاؤل المتفائلين أن القبطان عاود زيارته بعد أيام ، ليثبت وفاءه بوعده ، وليؤكد أن الأحوال سوف تستمر في التحسن . وفعلا ، فقد جلبوا لنا المصاحف بعد ذلك ، مما خلف أثرا طيبا في نفوس النزلاء . وعلى العموم ، فقد كان لتلك المستجدات انعكاس إيجابي على ظروفنا الصحية والاجتماعية والنفسية . حتى أصبحنا نعرف تلك المرحلة «بعصر النهضة» . و برزت في تلك الفترة أنشطة جديدة

في مجال التجارة ، فازدهرت مقايضة الملابس وعلب السردين والتمر .. وكان لافتا ظهور أشخاص يتمتعون بنوع من التميز والفراسة في مزاوله هذا النشاط . وعلى صعيد آخر ، فتح الحراس باب العمل للسجناء القادرين . فأصبح بإمكانهم الخروج إلى الساحة الكبرى ، حيث توجد مساكن الجنود ، وحيث توجد حديقة صغيرة وبئر تسقى منها الأشجار وبعض المزروعات . في كل يوم تخرج فرقة من الشباب ، فيتوزعون للقيام بالمهام المسندة إليهم . وتتمثل تلك الأشغال عادة إما في كنس الساحة وإما في تنظيف المراحيض وملء الصهريج من ماء البئر بواسطة الدلاء .. وقد يكلفون في بعض الأحيان بصنع الآجر والمساهمة في بعض عمليات البناء المحدودة ، وترميم الجدران .. وقد رأى الشباب في ذلك العمل فوائد كثيرة جعلتهم يتحمسون للخروج يوميا إلى الميدان : فهو يمنحهم فرصة للترويح عن النفس واستنشاق الهواء . كما يتيح لهم الحركة والقيام ببعض النشاط العضلي . وهو كذلك فرصة للإحتكاك بالجنود ومحاولة البحث عن «بشير خير» بينهم ، قد يفتح منفذا على العالم ، ويساعد على كسر الحصار المضروب على السجن ... وقد بدا هواة التدخين أكثر تعطشا للخروج من غيرهم ، تحذوهم في ذلك رغبة جامحة في التقاط أعقاب السجائر ! وفي ذلك فتح جبهة جديدة من جبهات الصراع الذي يخوضه السجناء ضد جهاز الحراسة ، من أجل إثبات الوجود ..

وعلى المستوى الثقافي ، فقد توفرت الأقمشة الصالحة للكتابة على إثر وصول دفعة الملابس ، وأصبحت بدورها تمثل سلعة قابلة للتسويق . وساعد وجود المصاحف على إقناع الحراس بالحاجة إلى وسيلة بسيطة لكتابة بعض الآيات القرآنية «للشيوخ».ولما جاء القبطان، عرضت عليه تلك الطريقة المكتشفة محليا ، والمتمثلة في استعمال قطع الصابون .

فما كان منه إلا أن صادق عليها وأجاز الكتابة «بالأقلام الصابونية». منذ ذلك الحين ، تطورت صناعة الألواح الكرطونية المغلفة بالثوب الأسود ، حتى أصبح كل طالب يتوفر على الأدوات الأساسية اللازمة للغوص في بحر العلم والمعرفة ..

وتكونت نشاطات فنية موازية . فظهرت الإرهاصات الأولى للشعر والقصة و المسرح . ومن الطبيعي أن ترتبط تلك المظاهر الثقافية المتولدة من رحم السجن ، بواقعنا اليومي المعاش : « فالإنسان ابن بيئته . » !

و لما كانت قضية الصحراء سبب وجودنا في هذه المحنة ، بحيث لفقت لنا جميعا تهمة واحدة : « الانتماء للبوليساريو » ، فقد كنا مقتنعين كل القناعة أن مصيرنا مقترن بتطورات القضية ، شئنا أم أبينا . حتى أولئك الذين كانوا « ملكيين أكثر من الملك » ، باتوا يدركون أن لا سبيل لهم إلى الهروب ، وقد جرفهم تيار السيل العرم...

و الحقيقة أن الكثير منا كانوا يجهلون كل شيء عن القضية ، بل كانوا يجهلون كل شيء عن السياسة و السياسيين .. و إنك لتحتار و يملأك العجب ، عندما ترى أناسا لا يمتون لهذا العالم الظالم أهله بصلة ، و لا يمثلون تهديدا لأي كان ، فإذا بهم يرمون في ظلمات السجن بقرار تافه ، و يموتون من دون أن يسألوا عن شيء (لأنهم لا يعرفون شيئا أصلا) ، و من دون أن يكون لهم ذنب سوى أنهم محسوبون على نوع من البشر ! .. أصبح الجميع إذن مرتبطا بقضية الصحراء ، متعلقا بأخبارها ، متلهفا إلى الاطلاع على مستجداتها اليومية . لذلك كان البحث عن «الطائر النادر» من بين الجنود ، أسمى الغايات . كيف يمكن هذا والحراس أغلبهم حاقدون ماقتون ، والتعليمات المعطاة لهم بالغة الصرامة ؟ .. وبمجرد أن برزت فرصة الخروج إلى الساحة للعمل ، بدأت تلوح بوادر الأمل : فهناك بعض

الجنود القلائل الذين أخذوا في التقرب إلى السجناء ، وطفقوا يتغاضون عن بعض الممارسات الممنوعة كالبحث عن أعقاب السجائر ، خلافا لما كان يبديه الآخرون من تشدد وتربص بالدوائر . تلك الثلة القليلة فتحت جسرا للأخوة والتضامن ، بتزويد النزلاء ببعض الحاجيات التي لا تخلو من أهمية رغم بساطتها . فهي تعبير صريح عن التعاطف مع أناس مقهورين ، والتمرد على سياسة التنكيل والإذلال المنتهجة من طرف السجانين . صار بعضهم يمدنا بعلب الكبريت وحتى بالدخان ، وصار آخرون يأتون ببعض الأخبار الشفوية ، وحتى بأطراف الجرائد ! في تلك الظروف الحالكة ، لم يكن القيام بأعمال كالتى كانوا يقومون بها بالأمر اليسير . وإنما كانت أعمالا بطولية جلية لا يسعنا إلا أن نذكرها بكل جميل وعرفان! جنود أميون ، ينتمون لجهاز «مخزني» يحترف القمع والترهيب ، لكنهم كانوا يتحلون بالإباء والكبرياء والخلق الرفيع . والأجمل من كل هذا أن واحدا منهم لم يرفع يده يوما نحو سجين ليضربه ، ولم يفه بكلمة مارقة حتى ولو كان ذلك من قبيل التمويه أمام الآخرين !..

من بين هؤلاء الرجال الشرفاء القلائل ، برز شخص استثنائي ليس له مثيل ، آلى أن يذهب إلى أبعد الحدود في ذلك الإتجاه ، غير عابئ بالعواقب ..وقف يوما أمامنا وقال :

– أنا مستعد أن أمنحكم كل ما لدي ، فماذا تطلبون ؟

لم يكن لنا آنذاك إلا مطلب واحد ووحيد . فهل يمكن لهذا الشخص أن يوفره يا ترى ؟ لا ، مستحيل ! ! قال له أحدنا متلعثما في كلامه :

– نريد .. مذياعا !

لم يتردد الرجل لحظة واحدة ، بل كان جوابه مباشرا :

– سيكون معكم غدا !

جاءنا المذيع إذن ، وأصبح بإمكاننا أن نطلع على كل ما يجري في العالم ! لقد كان أعظم مكسب تمنينا تحقيقه في ذلك الواقع الموصود ، ولكنه كان أيضا لغما بالغ الخطورة ! فحذار من اللعب بالنار . بقدر ما كان التخوف من الكارثة كبيرا ، بقدر ما كان الموقف يقتضي منا درجة عالية من الحزم والحذر . كانت الآراء متضاربة في البداية ، إذ كان هناك تيار متحفظ يعارض وجود الجهاز بصفة نهائية. بل كان منا من بدأ يهدد بوجوب تصفية «الشر» أو إرجاعه لصاحبه ، وإلا فسيضطر هو أن ينادي على الحارس ليقول له :
- استرد مذيعك واكفنا بأسه وإلا فستتحمل العواقب !

وكان في المقابل تيار آخر متمسك بفكرة الاحتفاظ بالمكسب كيفما كانت الظروف، «وليقع ما يقع!».

كان لا بد من فتح حوار «مستعجل» من أجل تهدئة النفوس وتقريب وجهات النظر المتباينة . عمل أصحاب المبادرة على القيام بحملة لتلطيف الجو وتغليب المنطق ، حتى تتوفر الظروف الملائمة للإستمرار ، وحتى لا تنفلت الأمور من أيدينا وتخرج عن السيطرة ، فيضيع كل شيء ، وتحل الكارثة التي لا تبقي ولا تذر ...

وهكذا تقرر أن يبقى المذيع عندنا ليلتين أو ثلاثا ، ثم نعيده إلى الحارس ، على أن يمنحه لنا في فرصة قادمة ، وهكذا ... كان لذلك الحل دور كبير في تجاوز الأزمة وإعادة المياه إلى مجاريها ، حتى تعود الجميع على ذلك الضيف النفيس واستأنسوا بوجوده وأصبح جزءا من حياتهم اليومية .. اتفق السجناء على عدم استعمال «الراديو» إلا ليلا ، وفي أوقات النشرات الإخبارية بالتحديد . أما خلال النهار ، فيجب أن يخبأ في مكان سري لا يعرفه إلا أشخاص محدودون . ومع مرور الأيام ، أصبحت الأخبار تتداول يوميا ، وتوزع كل صباح بواسطة أفراد يكلفون بنقلها إلى ممثلي الغرف ، الذين

ينقلونها بدورهم إلى بقية المجموعة ..

وفي تلك الأثناء ، حدث أن تغير القبطان ، وهو المسؤول المباشر للسجن . فظهر بعض النكوص في أوضاعنا . وظهرت تقلبات جديدة في مزاج الحراس ، الذين يسهل عليهم الانتقال من حال إلى حال! وعلمنا في تلك الأيام بوصول مجموعة صغيرة من الصحراويين ، من بينهم ست نساء . وقد ألحقوا بجناح كان يتواجد به خمسة طلاب من داخل المغرب وأربعة جنود سابقين ، إضافة إلى شخص عاشر يمثل حالة معزولة . كما أضيف إلى نفس الجناح فرد غامض الأطوار ، يتحدث بلهجة شرقية ، عرف في قاموس السجناء « بالبناني » ..

سأت أوضاعنا من جديد ، و نقص الغذاء و انعدم الدواء . و توالى سقوط الضحايا لبضعة أشهر . فقد توفي « المهدي أحمد ، و هيبة ميارة ، و شي غالي مكية و الجيد كركوب ، و سلامة أبا لحسن ، و محمد ماء العينين .. » ولما كان النصف الثاني من سنة تسع وسبعين وتسعمائة وألف ، جاء القبطان الجديد يتفقد الأحوال ، و كأنه لم يكن على علم بما يدور في مؤسسته الجديدة . بدأ يتظاهر بالاهتمام الشديد والتعاطف العميق معنا ، ويعد بتغيير الأمور نحو الأفضل . وفعلا ، ما هي إلا أيام قليلة حتى أخذت الأوضاع في التحسن . عادت المواد الغذائية التي كانت «موقوفة» إلى الظهور ، كاللحم والسردين المعلب . بل سمح لنا بوسائل صنع الشاي من أباريق وكؤوس وقنينات غاز .. وتم تزويدنا بالسكر والشاي ! وعلى المستوى الثقافي ، فقد كانت القفزة عملاقة : حصلنا على السبورة والطباشير ، «وأطلق سراح» الكتب المحجوزة في المستودع ، وقد كانت تعود لأحد الطلبة الذين ألقى عليهم القبض وهم يستعدون لاجتياز امتحانات البكالوريا . اكتملت إذن وسائل التدريس . فما علينا إلا أن نسارع في تشكيل الأقسام

حسب المستويات ، وتعيين الأساتذة لمختلف المواد ، ثم بعد ذلك تحديد البرامج الدراسية وتوزيع استعمالات الزمن . كل ذلك تحقق بفضل جهود طاقم مستعد لتقديم كل ما لديه من معارف وأفكار ، وجعلها رهن إشارة تلاميذ متعطشين للتلقي والتحصيل ! ولا شك أن تلك المجهودات أعطت ثمارها في ظرف زمني وجيز . فبرز من بين التلاميذ عناصر يملكون كفاءات عالية وقدرات على الاستيعاب السريع . كان من بينهم من لم يسبق له أن جلس على مقعد للدراسة ، فإذا به في أشهر قليلة يعادل مستوى الإعدادي . وآخرون كانوا أوفر رصيда إذ سبق لهم أن مارسوا التعلم ، فأصبحوا مؤهلين لاجتياز البكالوريا ! و كان من حسن حظ هؤلاء و أولئك أن المدرسين كانوا متنوعين نسبيا ، بحيث وجد من بينهم من يتقن اللغة العربية ، ومن يجيد الفرنسية ، وحتى من له دراية بالرياضيات والعلوم ، والتاريخ ، والجغرافيا .. هؤلاء الأساتذة لم تكن لديهم مراجع ولا وسائل منهجية ، وإنما كانوا يعتمدون على ذاكراتهم واجتهاداتهم الشخصية . وقد شجعهم كثيرا ما كانوا يلمسونه من التلاميذ من تجاوب كبير ورغبة جامحة في التعلم واكتساب المعرفة . بالموازاة مع ذلك ، باتت تتبلور تجارب الإنتاج الفني والأدبي . وأصبح الجمهور الصغير يتمتع ببعض المحاولات المسرحية والغنائية ، ويستمتع إلى قصائد الشعر ، وبعض القصص القصيرة والخواطر ...

الجزء الثاني
في جوار الورد

الززال

استمرت المرحلة الثانية من «عصر النهضة» عدة شهور ، قطعنا خلالها أشواطاً لا بأس بها في مجال التعليم والثقافة . وكان لدخول صناعة الشاي في حياتنا اليومية دور كبير فـي خلق مزيد من الاستقرار والارتياح ، إضافة إلى تلك «الجرعات السحرية» التي كان يمنحها لنا المذيع كل مساء . تلك العوامل كلها جعلت الآمال تعود إلى النفوس ، وزادت من تحفيز الجميع على المثابرة والتحصيل واستغلال الوقت ... لكن رياح القدر لم تكن دائماً مع اتجاه سفينتنا التائهة في الظلام . فقد حدث شيء لم يكن في الحسبان . ذلك أن المعتقل الذي كنا نطلق عليه اسم « اللبناني » ، تمكن من كتابة رسالة موجهة إلى أحد السجناء ، يقترح فيها القيام بعملية فرار ! حصل الحراس على الرسالة في ملابس كانت موجهة إلى النساء قصد التصبين . فهذا الشخص كان يحظى بمعاملة استثنائية ، بحيث كانت الحراسة تهيء له طعاماً خاصاً ، يحرم منه سائر السجناء . أما ثيابه فقد كانت ترسل إلى النساء السجينات لكي ينظفنها فتعود إليه . ولكنه كان يجهل أنها تخضع لتفتيش دقيق قبل وبعد غسلها .

عثر إذن على الرسالة التحريضية ، فكان الززال المدمر ! أحيل « اللبناني » على التحقيق ، و مورس عليه أشد أنواع التعذيب من أجل الكشف عن «خطته» ، وعن الأشخاص المحتمل أن يكون قد اتصل بهم ، و عن الجندي

أو الجنود الذين زودوه بوسيلة الكتابة ، وربما بمعلومات عن السجن . كما تم تعذيب أحد الطلبة المتواجدين معه في نفس الجناح ، و عزله عن رفاقه عدة شهور بعد ذلك . و نودي على بعض السجناء من مجموعتنا للإستئطاق . بل امتد لهيب الحريق حتى وصل الحراس! وقد أصابنا الذعر الشديد مخافة أن يلحق «صاحبنا» مكروه ، بحيث كنا متأكدين أنه المتهم الأول في القضية ، وأن لا أحد غيره من الجنود يستطيع أن يدخل مع السجناء في علاقة من هذا المستوى . لكن العناية الإلهية كانت محيطة به ، فخرج من المأزق الكبير بأعجوبة كبيرة! ويعود الفضل في ذلك بالأساس إلى ذلك الطالب الشجاع «محمد» ، الذي تحمل الكثير من الألم والعذاب والقهر ، غير أنه ظل صامدا مصرا على ألا ييوح باسم ذلك الرجل الشهم العظيم ، الذي سخر نفسه لخدمة كل المعتقلين بلا تمييز!

أما نحن ، فقد حلت بنا نقمة الناقمين ...! بالرغم من تأكدهم من خلال البحث أن لا دور لنا في ذلك التصرف المتهور الذي أقدم عليه «البناني» ، عملوا على صب جام الغضب على الجميع . فهم يدمرون كل شيء لمجرد وقوع حدث محدود الأهمية ، فكيف بمخطط مزعوم « لعملية فرار جماعية » ؟ قراراتهم دائما تتجاوز بكثير حجم «أخطاء السجناء.» لذلك كان موقفهم بأقصى ما يكون التطرف : تغيير موقع السجن ، و سحق المعتقلين ، والعودة بهم إلى أسفل سافلين ...!

كان «السوسي» (وهو الإسم الذي كنا نطلقه على صاحبنا) في دور الحراسة تلك العشية «لحسن حظنا» (وأي حظ !) . أخبرنا أنهم يعدون العدة لترحيلنا . فكانت فرصة لتوديعه وتسليمه المذيع ، إذ قال لنا :

– أعيده إلي أو أعدمه نهائيا ، فسوف يفتشونكم طبعاً !
شرع كل واحد منا يهيئ نفسه ويلبس ما استطاع ، استعدادا للرحيل . فهم

لا يخبرونك بأي شيء هم عازمون عليه ، وإنما يعتمدون دوماً على عنصر المفاجأة واقتحام السجن على حين غرة ...

ولما جن الليل ، بدأوا يتحركون تحركاً غير عادي ، جعلنا نتأكد من صحة الخبر . هل قدموا لنا وجبة العشاء ذلك المساء؟ لا أذكر ، ولا أعتقد أن أحداً من رفاقي يتذكر ، لأن الهول كان أعظم ! أطفالاً المصابيح كعادتهم عندما يقبلون على إحدى عمليات الظلام . فهم يفعلون ذلك مثلاً متى أرادوا دفن أحد أمواتنا .. وطفقوا يخرجون المعتقلين واحداً تلو الآخر ، دون سابق إنذار ، بدءاً من الغرفة الأولى عن اليمين ، حتى وصلوا إلى غرفتنا وهي من الأواخر . في صمت رهيب ، لا يتخلله إلا أوامر أحد الملازمين ، وقد عرفناه منذ سنة تقريباً ، كان ينوب عن القبطان في بعض الأحيان . وكان شديد القسوة على السجناء . سمعناه في تلك الليلة يقول :

– شددوا عليهم القيود ، وإذا أبدى أحدهم أبسط حركة فاقتلوه ، وأنا المسؤول .

كان يعطي تلك الأوامر باللغة الفرنسية ، لأنه كان يحب أن يظهر تميزه للجنود ، رغم أن هؤلاء لم يكونوا يفقهون حتى العربية ، وأخرى لغة أخرى ! كان الجميع مصاباً بالرعب الشديد ، إذ كنا نعلم أننا بين أيدي لا ترحم ، خاصة وأننا متهمون بجرم عظيم ! الفرار ! هل هناك شيء أخطر من الفرار؟. حدث مرة أن لاحظوا عصفوراً تلتصق برجله ورقة ، فأقاموا الدنيا وأقعدوها ، واستنفروا كل قواعدهم من أجل الإمساك بالطائر المسكين ! ولما تمكنوا من القبض عليه - وقد كانوا «يتهمونه» بحمل رسالة من السجناء إلى الخارج - وجدوا أنها مجرد ورقة لعب علقها الأطفال بالعصفور ! حتى العصفافير منها السعداء ومنها تعساء النصيب ! أي ربح طوحت بذلك الطائر الأحرق ورمت به في بقعة من بقاع جهنم ؟ أليست أرض الله واسعة

؟ ألم يكن بوسعه أن يسلم جناحيه للهواء ويطيير في الأعالي حتى يحط في روضة فيحاء لا يوجد بها أحد من بني البشر ؟ تبا لحظ بعض الكائنات!..

عندما يدخل السجين إلى «سقيفة العمليات»، تلتف حوله عصابة من الحراس ، فيفتشونه بطريقتهم المهينة المعتادة ، ثم يعصبون عينيه ويرمون به إلى داخل الشاحنة كما ترمى الأغنام ، حيث يمسك به آخرون ليكبلوا يديه وراء ظهره بحبل متين . ولم يكن كل شخص مقيدا على انفراد ، بل عملوا على ربط الجميع برسن واحد ممتد ، حتى تستحيل أي حركة لأي واحد . ولما شرعت الشاحنات تتحرك ، بدأت رحلة العذاب الأليم ! كانت ليلة فريدة لم نشهد لها مثيلا من قبل ولا من بعد! ليلة طالما تذكرها السجناء ، بل وتغنوا بقساوتها وبما خلفته في نفوسهم من آلام وجراح . كان ذلك مساء الثالث والعشرين من أكتوبر ، من سنة ألف وتسعمائة وثمانين . كنا مكდسين كالبهائم ، وقد أطلقوا علينا أضواء كاشفة زادت من الحرارة داخل الشاحنات . وكلما مالت العرب ، توتر الحبل على سواعدنا ، فتضاعف الألم إلى حد الشعور بالموت ، وتوالى الصراخ والعيول ، فتعاقبت ضربات الجنود ينزلون علينا بأعقاب الرشاشات وبالأرجل ! لم تتوقف رحلة الجحيم إلا بعد ساعتين أو ثلاث ، كانت الدقائق فيها أطول من كل أحقاب الزمن !

شرعوا ينزلون «بضاعتهم» المسروقة في صمت مطبق ، وتحت جنح الظلام الدامس . أما نحن ، فقد كان فك القيود عن أيدينا ونزع العصابات عن أعيننا بمثابة الخلاص الكبير ! لا يهم بعد ذلك أن نعود إلى سابق عهدنا في الزنازن المغلقة ليل نهار ، فإن ذلك لن يساوي شيئا أمام الذي قاسيناه خلال السفر المشؤوم . هكذا هم رعاة السجون السرية . تمرسوا بأساليب العسف وقهر الإنسان والدوس على كرامته . وخبروا كيف يجعلون ضحياتهم ترضى بواقع معين : يشددون عليها الخناق ، وينزلونها إلى الحضيض ،

فتتمنى آنذاك لو تعود فقط إلى وضعها الأول!

ذلك ما وقع للسجناء الأشقياء المساكين . لما بدأ كل واحد يدخل إلى زنزانتها الجديدة ويرى (بل يحس ويسمع في ظلام) بعض أصحابه بجانبه ، يأخذ الجميع في تبادل التحايا والتهانئ بنهاية مشوار الموت .

بعد مضي أزيد من أربع سنوات «بأكدرز»، ها نحن ندشن حياة جديدة بهذا المعتقل ، وكأننا ندخل السجن لأول مرة ! كل شيء يعود إلى المربع الأول ، ويبدأ العد من الصفر .. سقط أول شهيد بعد يومين فقط من وصولنا إلى الربع الجديد ، وهو الشيخ «أحمد الترفاس»، الذي مات متأثرا بإصابة في بطنه على إثر ضربة تلقاها من أحد الحراس خلال السفر القاتل . وكان عدد الشهداء قد بلغ الثمانية والعشرين هناك في أكدرز ...

أول ما يقوم به السجن عادة هو محاولة استكشاف المكان . كذلك أخذنا نستخدم كل حواسنا من أجل التعرف على وسطنا الجديد .

لاحظنا بداية أن الأبواب حديدية ، على عكس ما كان في أكدرز حيث كانت الأبواب من خشب ، وكان يسهل ثقبها بواسطة الإبر والمسامير . وقد أتاح لنا ذلك أن نحصل على نقط نراقب من خلالها تحركات الحراس في دخولهم وخروجهم ، وحتى أولئك الواقفين على السطح . هم يرقبوننا ، ونحن نرقبهم : إنها لعبة القط والفأر الأبدية ..

استنتجنا من وجود الأبواب الحديدية أن البناية حديثة . كما لاحظنا أن جدران السجن ليست بالعلو الذي كانت عليه بناية أكدرز ، وذلك يعني أن المعتقل لا يوجد وسط المدينة طبعاً . وكنا نسمع أزيز الشاحنات - وهي قادمة - يرتفع بقوة كلما اقتربت ، مما يفيد أن الضغط على المحرك يزداد ، وذلك يعني أنها في صعود ، أي أننا نوجد على قمة جبل ، وهو أيضا أمر يفسر عدم ارتفاع أسوار السجن كثيرا . البناية مربعة الشكل تقريبا .

وتحتوي على أبراج تحتل زواياها الأربع . وقد قسموا البناية إلى جناحين ، أحدهما للرجال ، والآخر للنساء . وقد تغيرت كتيبة الحراس كلها ، إلا أربعة عناصر بقوا من «الحرس القديم» ، وكلفوا بالتعامل المباشر مع السجناء برئاسة رقيب : يفتحون الأبواب ويغلقونها ويشرفون على توزيع الوجبات ، ويقومون بعمليات التفتيش الروتينية . كما خولت لهم كل الصلاحيات في معاقبة من يشاؤون ومتى يشاؤون .. التغذية أيضا عادت إلى الصفر : قليل من القليل ! إلا أن النساء المعتقلات تكلفن هنا بمهمة الطبخ ، بعدما كان طباط «أكدر» يجتهد في العدوان عبر ما كان يقدمه من طعام . كان يفضل الكلاب ويمنحها الأسبقية ، فيغرف لها من الطبقة العليا من «المرق» ، و ما فضل عن الكلاب يبقى للسجناء .

قبلت النساء إذن تحمل تلك المسؤولية رغم ما يعنيه ذلك من جهد وعناء ، وهن اللواتي لم يكن عددهن في السنوات الأولى يصل إلى العشرين ، وكانت من بينهن أمهات مسنات ، وأخريات مريضات عاجزات عن كل عمل . تقبلن ذلك ولم تبق منهن خمس سنوات من القهر والتنكيل إلا أجسادا غثة نخرها الجوع والبؤس والحرمان . لكن عزيمةهن كانت أقوى من الحديد ومن الطغيان ! وكن مصممات أن يفنين ما تبقى من شبابهن في العطاء والتضحية . كانت ظروف عملهن أقرب إلى ظروف المستعبدين أو المحكومين بالأشغال الشاقة ، يستيقظن مع طلوع الفجر كل يوم ، ويشرعن في تهئؤ العجين وإعداد الفطور ، ثم يذهبن إلى المطبخ حيث تقوم فرقة بطهي مئات قطع الخبز داخل غرفة مغلقة بها فرن يشغل بالغاز ، بينما تتكلف أخرى بإعداد طعام الغداء ، وبعده طعام العشاء . كل ذلك يسند إليهن ولا توفر لهن أبسط المستلزمات ولا القدر الكافي من المواد الغذائية اللازمة لإطعام المئات من الأفواه الجائعة ، خاصة بعد أن تضاعفت أعداد السجناء

في السنين الموالية ، وبعد أن أصبح الجنود يتزودون بالخبز مما تصنعه
أيدي المعتقلات الصامدات ..

ناقاة حلوب

باتت كل علاقة بالحراس مستحيلة تماما ، ولم يعد هناك مجال للتقرب من أي كان. وانقطعت نهائيا كل أخبار عن العالم ، وقد كان المذيع يجعلنا أقرب إلى الدنيا ، ويمنحنا إحساسا بالإنتماس إلى سكان الأرض ! وفي إحدى الليالي الهادئة ، اكتشف بعض الإخوان من زنزانة ركنية موالية لأحد الأبراج ، أن أصواتا تصل إليهم عبر الجدران . أخذوا يرهفون السمع ويتحسسون ، حتى عثروا على نقطة يتسرب منها الصوت أكثر . ليس بما تستشف منه الكلمات بوضوح ، ولكن الكلام قريب . إذن فالحراس يسكنون وراء الحائط ، ولا شك أنهم يستمعون للمذيع .. ماذا لو تم التنقيب عن هذا الكنز الثمين بطريقة تمكن من استخراج واستغلاله على الوجه الصحيح ؟ يجب انتظار حلول الصبح إذن ، لكي يتم استطلاع الأمور تحت الضوء . وبالفعل ، لما أطل النهار ، بدأ «المهندسون» يتلمسون تضاريس الحائط مستعملين حاستي السمع والبصر ، حتى عثروا على شقوق صغيرة تنفذ منها الأصوات . واستنتجوا أنهم لو استطاعوا تعميق الشقوق في اتجاه سمك الجدار لتيسرت عملية التنصت أكثر فأكثر . كيف يمكن هذا بدون أدوات ؟ ولحسن الحظ ، تم العثور على سلك معدني كان له دور سحري ! لقد مكن ذلك السلك من تتبع بعض الشقوق بعيدا حتى كاد أن يخرج من الجانب الآخر ! وكانت المعجزة : كل أحاديث الجنود يلتقطها السجناء بسهولة

لا تصدق . والمذيع كأنه بين أيديهم ! وسيلة رائعة ، و خالية من كل المخاطر ! و هكذا صرنا نتزود بالأخبار من أفواههم ، ومن الراديو والتلفاز ، من حيث لا يشعرون! أرادوا إبعادنا فقربونا ، وأرادوا قتلنا فأحيونا ! علمنا إذن أننا في «قلعة مكونة» ، عاصمة الورد! ما هذه المفارقة ؟ أيقظ لبلدة تحتضن حدائق الورد البديعة ، وتستقطب عشاق الجمال من كل أصقاع الدنيا ، أن تخبئ في ثناياها سجنا يذاق فيه بنو البشر العسف والتنكيل ، ويموتون بالجوع والمرض والإهمال ؟ هل يجوز للبشاعة أن تكون مغلفة بالوان السحر والبهاء ؟...

العزلة أصبحت القاعدة السائدة في الوضع الجديد . ولم يعد الاتصال بين مختلف الزنازن ممكنا ، إلا بواسطة إشارات خاطفة خلال مرور الأشخاص بالقرب من النوافذ ، عند خروجهم مجموعة مجموعة بالتناوب . وعادت المعاملة القبيحة من طرف الحراس الخمسة ، الذين أصبحوا ينكلون بالسجناء ويزيقونهم أصناف القمع والتعسف كل يوم . ولطالما تربصوا الفرص لينظموا هجمة مباغطة على إحدى الزنازن ، زاعمين أنهم ضبطوا أحد الأفراد أثناء محاولته الإتصال مع غرفة أخرى ، فيلحقوا به أشد العقاب لخرقه القانون المقدس! وفي الحقيقة ، هم لا يحتاجون إلى ذرائع يسوقونها حتى يفعلوا ما يفعلون : فهل ساق الذئب يوما حجة على الغنم ؟..

وبات تمرير الأخبار بين الزنازن أمرا شبه مستحيل بسبب العزلة المفروضة والحصار المشدد . لذلك كان «المراسلون» يكتبون بإعطاء عناوين مقتضبة عن الأنباء المهمة . وبدأنا نختار لغة خاصة لا يستطيع الحراس فك رموزها ، حتى ولو وقعونا في فخ التنصت الذي دأبوا عليه ! كانت «الناقاة» مثلا تعني عندنا المذيع ، و « الحليب» رمزا للأخبار ، «وأهل الغنم» تعبيرا عن الثوار .. فأني شيء تستغربه إذا سمعت صحراويين يتحدثون فيما بينهم عن

«الناقة والحليب والخيام ورعاة الغنم» ...؟

مرت عدة أسابيع هكذا ، وبدأ الجو يكفهر أخذاً في البرودة بصورة لم نكن قد اعتدنا عليها في أكدز . بل حدث أن شاهدنا حبات الثلج تتساقط وتتكدس على قمم الأبراج الأربعة حتى أضحت هذه كمجموعة من شيوخ الأطلس ، وقد تجمعوا حول مائدة الطعام ، بعمائمهم البيضاء ، وهم يتجاذبون أطراف الحديث حيال الموسم الفلاحي المقبل وما يتطلبه من عزم وتشمير عن السواعد ! وقد عزز هذا المشهد الطبيعي الرائع فرضية وجودنا على قمة جبل ..

مضت عدة شهور دون أن يتغير حالنا قيد أنملة .. وفي أحد أيام الربيع المفعم بأريج الورد ، دخل علينا الزبانية وقد تغيرت ملامحهم وبداء عليهم الانشغال والتوتر ، كأن أمراً طارئاً يسيطر على أذهانهم . شرعوا للتو يخرجون السجناء واحداً تلو الآخر . لم نصدق أننا ذاهبون في رحلة جديدة ، حتى إذا نحن يرمى بنا فجأة داخل الشاحنات كروؤوس الغنم ، وفي غمرة عبارات السب النابية المعتادة . الغريب أن هذا يحدث في واضحة النهار ، وقد كانوا في ما سبق ، لا يتحركون إلا والليل أرخى سدوله . وقد أثار انتباهنا في تلك الأيام تحرك طائرات الهليكوبتر في سمائنا بكثافة .. لا شك أنه أمر مستعجل طرأ عليهم بغتة ولم يكونوا يقيمون له حساباً ! حتى «الناقة» لم ترشح لنا بما قد يوضح الصورة أو ينير الطريق .

الناقة؟ يا للتعاسة! هل سنبعد عن ناقتنا الحلوب يا ترى؟ تبا لهم ولما يمكرون!.. كانت الشاحنات قد أخذت طريقها نحو الهدف المرسوم ، وكل منا يجتر التساؤلات والظنون ، والعيون معصوبة ، والأيدي تشلها الكبول . توقفت القافلة بعد ساعات ، وبدأوا ينزلوننا بالتتالي ، ويلقون بنا داخل حجرات مسكننا الجديد . إنه منزل كبير ، شامخ الأسوار ، ذو غرف فسيحة ،

مشملة على نوافذ ضخمة كالأبواب. فناؤها مربع الشكل ، تتوسطه حديقة صغيرة مخضرة ، تزينها أشجار البرتقال المزهرة . كل شيء يوحي أنه كان أحد قصور «الكلاوي» ، المنتشرة بالمنطقة! ويبدو أن هذا القصر الجميل قد صمد في وجه عاتيات الزمن، وبات يحافظ على «شبابه» ورونقه ، على عكس قصر «أكدز»، الذي فعلت فيه الشيوخوخة فعلتها، وغدا يفقد أحد أطرافه بين الحين والحين..

ومضت عدة أيام على مكوثنا في «قصر الربيع» نصبح ونمسي على شقشقة الطيور، وتنفس عبير زهر البرتقال بالرغم من إغلاق الأبواب والنوافذ باستمرار. صحيح أن إقامتنا هناك منحتنا إحساسا داخليا بالإرتقاء إلى طبقة «سجناء القصور»! ولكن ، ماذا يفيدنا أن نقطن في قصر موصود لا يتسرب إليه خبر يدخل بعض الأمل على نفوسنا الضمأى ؟ بدأنا نحن إلى «قلعة مكونة»، حيث ناقطنا المدرار تجود باللبن الطري اللذيذ!.. وما هي إلا بضعة أيام، حتى عادوا لينقلونا مرة أخرى! هل كتب لنا أن نصبح أسرى متنقلين إلى النهاية؟ ومتى وكيف تكون النهاية؟ هل قرروا أن يجعلونا دائما مترقبين متخوفين من الرحيل؟ أم هم لازالوا في بحث مستمر عن المكان المناسب للأشقياء المناسبين؟...

وكم كانت فرحتنا كبيرة لما فتحنا أعيننا ، فإذا نحن عدنا إلى معتقلنا بمكونة! نعم، فرحنا بعودتنا إلى القلعة، ليس حبا في جدرانها السمكية، ولكن حبا في ناقة تسكن بين تلك الجدران. فقد قال أحد الشعراء يوما يغني بالحنين إلى الديار حيث «ليلاه» :

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن ، حب من سكن الديار!

عانقنا الناقة بحرارة فائقة ، و درت علينا هي أيضا بحليب دافئ

منعش ، كأنها ترحب بعودتنا إلى الأوكار .. كان ذلك في شهر أبريل من سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف . آنذاك عرفنا أن قصر الربيع يوجد بقرية «سكورة»، وأن سبب نقلنا إليه لم يكن من أجل النزهة والترفيه طبعاً ، وإنما كان القصد منه إبعادنا عن مدينة الورد وإخفاءنا هناك ، حتى تمر زيارة الحسن الثاني للقلعة في ظروف ممتازة! وقد سئل الملك من أحد الصحفيين خلال تلك الزيارة عن وجود معتقل سري بمكنة ، فأجاب أن المدينة معروفة بموسم الورد، وأنها خالية من السجناء. وقد كان الملك صادقاً تماماً في جوابه : ألم نكن وقتها نقضي إجازتنا في قصر الربيع؟..

عادت الحياة إلى ما كانت عليه في السنوات الأولى، كئيبة حزينة، شحيحة في كل شيء . المأكّل لا يسد الرمق ، و الأبواب موصودة في أغلب الأوقات ، و لا تفتح إلا لبضع دقائق لكل أصحاب غرفة . حتى خروج بعض الأفراد لتنظيف ساحة الحراس وسقي الأشجار ، لم يعد ممكناً مثلما كان عليه الحال في أكّز . و لولا أن كنا نتزود بالأخبار من الحائط لكان الوضع علينا أشد قتامة و أكثر تأثيراً .

كانت قضية الصحراء تشهد تطورات ساخنة على كل المستويات . كانت المعارك العسكرية قد بلغت أوجها كما ونوعاً ، وتوسعت رقعتها شمالاً وجنوباً ، وامتدت في الغرب حتى تصادمت مع أمواج المحيط الأطلسي!.. أما على الصعيد الدبلوماسي ، فقد استطاعت القضية أن تفرض نفسها داخل أروقة الأمم المتحدة ، وتمكنت جبهة «البوليساريو» من استصدار قرارات هامة لدى الجمعية العامة . بل اكتسحت «الجمهورية الصحراوية» منظمة الوحدة الإفريقية ، وأصبحت دولة كاملة العضوية فيها بعد حرب ضروس ، انتهت بانسحاب المغرب من المجموعة..

و لعل تلك الأحداث الساخنة كان لها انعكاس سلبي على أحوالنا داخل

السجن . فقد توالى علينا السنوات العجاف، و صــــرنا عرضة للإهمال و النسيان . بل كنا ضحية انتقام شرس ، و تعسف وتنكيل ، كأن لنا ضلعا في ما يجري دون البحار و خلفها !.. و هكذا عادت أعراض سوء التغذية تظهر في صفوفنا . و أخذت تنهش الأجساد وتحصد الأرواح. و كانت لي شخصا فرصة المرور من تلك التجربة العصيبة . استفتت يوما ، فإذا بي ألاحظ تلك الحبة تبرز في أسفل ساقي اليمنى . حبة على قدر بذرة حمص، تنبت تحت الجلد ، لا ألم لها و لا تأثير يلمس . لكن وقعها على النفس كبير . فهي نذير شؤم تعود السجناء على رؤيته ، و عرفوا كيف تنمو تلك البذرة وتتمدد ، لتصبح في الأخير «شجرة» تثمر الموت !

ظل المرض يتطور ، وتورمت الساق خلال أيام ، ثم أخذت في التصلب حتى أصبحت كقطعة الخشب اليابس . وصار الوقوف عليها شديدا الإيلام من فرط انحصار الدم في العروق. حتى القلب تأثر بذلك الوضع ، فأصبح الوقوف يسبب إجهاده ، فإذا هو يخفق بسرعة فائقة ، كعصفور ضاق درعا بالقفص ، فبات يرفرف يمنة ويسرة ، في محاولة للانفلات ، ولا انفلات!. ويصعب التنفس ، وتشعر بالدوار والغثيان ، وتضطر إلى القعود ، مودعا نعمة التنقل على الأقدام!..

لما وصل بي الأمر إلى تلك المرحلة ، بدأت أشعر أن شبح الموت بات يحوم حوالي . ولعل ما يخالج المرء في أيامه الأخيرة هو عودة الذكريات ، وصور الأهل و الأصحاب تتوافد عليه بالحاح شديد ، كأنهم يودعون ويشيعون! و أخذت في الإنطواء على نفسي ، مغرقا في العيش مع صــــور الوالد و الإخوة والأصدقاء ، تاركا مهمة القيام بمتطلبات الحياة المادية للصديقين الحميمين «محمد فاضل، و مبارك»، اللذين لم يبخلا علي بعنايتهما الفائقة . فقد كانا يقومان بحملي على بطانية عند الخروج إلى الشمس . كما

عملا على تنظيف ملابسي و فراشي ، مثلما كان الإخوة يفعلون مع سائر المرضى ..

وفيم أنا أعيش مع أوهامي وآلامي ، جاءت المفاجأة السعيدة . دخل الحراس ذات صباح وهم يحملون كيسا صغيرا ، و ما إن فتحوه حتى بدأ السجناء يصبحون متباشرين «إنه التمر ، إنه التمر ، إنه التمر !» الجميع كان يعرف ما لهذه الفاكهة المباركة من عظيم الأثر في علاج المرض القاتل! . وزع التمر ، وخص المرضى بحصص مضاعفة من طرف المجموعة : إنه التكافل الإجتماعي الذي طبع السيرة العامة لدى الجميع ، دون تخلف من صغير ولا كبير!.. ولم تمض إلا أيام قليلة ، حتى تبددت الأعراض ، وعادت الحياة للمرضى ، وعاد معها الأمل يراود النفوس السقيمة ! ولطالما تأرجحت مشاعرنا بين اليأس و الرجاء ، خلال مراحل السجن الطويلة ! كانت قد مرت ثلاث سنوات عسيرة ، مريرة ، خطيرة ، و نحن قابعون بجوار الورد ..

رسالة الريح

و في أحد الأيام ، جاء الجنود ليأمرونا بالإننتقال مرة أخرى!و لكن رحلتنا هذه المرة لم تكن عبر الشاحنات ، وإنما كانت على الأقدام ! مسيرة صغيرة ، كل يحمل خلالها متاعه بصحبته. تحولنا إلى جناح قريب ، يبدو أنه حديث البنيان . الزنازن مصممة على أساس أنها زنازن حقيقية منذ نشأتها : أبوابها من حديد سميك ، ونوافذها صغيرة «معلقة» في السماء ، لا تصل إليها أيدي المعتقلين ولا أعينهم ! وبالإضافة إلى تلك الغرف الجماعية ، هناك صف من الزنازين الفردية المعزولة ، معدة لمعاقبة «المارقين عن القانون». وهكذا وجدنا أنفسنا من جديد، نهبط إلى أسفل السلم في هذا الجناح المظلم! هناك في جناحنا القديم، على الأقل كانت النوافذ قريبة ، وكنا نطل منها على الساحة رغم الحصار . والأهم من ذلك ، كانت الناقاة تغذينا بحليبها اللذيذ! أما هنا ، فلا شيء من كل ذلك . وزاد الطين بلة ظهور حشرات طائرة بحجم صغار الجراد، تكاثرت بسرعة منذ قدومنا ، وبدأت تغزو أجسادنا ، وتنغص حياتنا الشقية أساسا! وكان الزمن صيفا ، والزنازن مكتظة ، والحرارة لا تطاق! كنا كلما طرأ تغيير سلبي او إيجابي على واقعنا اليومي ، حاولنا أن نحلله من شتى الجوانب لمعرفة أسبابه ومبرراته . وكنا في الغالب نلامس تلك الأسباب ونشخصها من خلال الإطلاع على الأحداث الدائرة حولنا . و لكننا في هذه المرة ، لم نتوصل إلى السر الكامن وراء الزج

بنا في ذلك الجحيم المروع ! حتى الجنود كسروا عن أنيابهم بشكل غير مسبوق ! وقد وصل بهم الحقد في تلك الأيام أن تعمدوا أن لا يقدموا لنا الخبز إلا وقد مرت أيام عديدة على إعداده ، فأصبح صلبا كالحجارة أو أشد صلابة! ولما تقدم أحدنا يوما إلى كبير الحراس ليشكو له «قساوة الخبز»، أجابه بعد أن صفعه بلطمة كادت أن تسقطه أرضا :

– لو كانت الدولة ترجو منكم خيرا لما عاملتكم هكذا ، ولكن الدولة تعني ما تفعل، و ذلك ما تستحقون!

بعد شهرين أو ثلاثة، عادوا بنا إلى مقرنا القديم، حيث الناقة لا زالت حية ترزق! ولكم كان ارتياحنا عظيما لما عدنا إلى الديار!...

علمنا في تلك الغضون أن المجموعة المتكونة من تسعة أفراد منحدرين من مناطق داخل المغرب، قد أطلق سراح ثمانية منهم بعد أن توفي التاسع (ويدعى ميلود). وبلغنا أيضا وصول مجموعات جديدة من الصحراويين من بينها العديد من النساء . هؤلاء النساء تم إلحاقهن بجناح صغير مجاور لجناح نسوة مجموعتنا . أما ذلك الرجل الغريب الذي كنا نلقبه «باللبناني»، الذي أشعل في «البيت» نارا أتت على الأخضر واليابس، فقد نقل إلى وجهة غير معلومة ، بعد أن أخذت تظهر عليه بعض علامات الاختلال العقلي ، إذ كان في بعض الأوقات يطلق صيحات مدوية، مصحوبة بعبارات سب وشتم في حق «الصحراويين وجمالهم ونوقهم وكل ما يكسبون». وكأنه فهم - رغم اختلاله - أن سب الصحراويين في هذا الزمن شيء مباح ، بل عمل مستحب ومطلوب ..

مرت الأيام والشهور قاسية حزينة . وساءت أحوال السجن كثيرا ، حتى بدأ الضحايا يتساقطون تباعا . توفي « السالك عبد الصمد ، محمد منيصير، و محمد بدى ، و سليكة السالك»... حتى الأخبار الواردة عبر الحائط لم

تكن تحمل جديدا يذكر ، سوى أن الحرب في الصحراء باتت على أشدها .
و استمرت حالة عزل الغرف عن بعضها لسنوات عدة ، مما أدى إلى تجزيء
الوقت المخصص للخروج للساحة من أجل إفراغ الأوساخ ، واستنشاق الهواء
و تنظيف الملابس ...

كنت في أحد أيام الخريف المكفهرة أسير في الساحة قبل أن يأمر الجنود
بالدخول. أدور حول «صهريج التصبين» ، وهو مربع صغير من الإسمنت
يتوسط الفناء ، يستعمله السجناء كموضع للغسيل، ويشكل محورا يحومون
حوله في دوراتهم الروتينية، التي تمثل لديهم نشاطا يوميا مهما ، اعتادوا
القيام به كلما سمح الوقت بذلك. كنت غارقا في أفكاري، أتساءل :

«- هل سيأتي يوم ياترى نرى فيه النور، و نعرف نهاية لهذه المحنة
الطويلة؟» و ربما كنت منهمكا في جمع شتات بعض الكلمات المبعثرة ،
لأصوغها في شيء يشبه الشعر ...

ازدادت قوة الريح بغثة ، فتطاير الغبار في الفضاء ، و تناثرت بعض الأوراق
في السطح ، و سقطت أمامي قطعة صغيرة ، فإذا هي جزء من إحدى
الجرائد . التقطتها بسرعة وخبأتها في جيبى بعد أن تأكدت أن الجندي في
الأعلى طرده الرياح ولجأ إلى ركنة بالقرب من أحد الأبراج . كان الحرمان
من القراءة والكتابة يمثل وجها من أوجه معاناتنا الطويلة . لذلك كنا كلما
حصل أحدها على شذرة من ورق مكتوب ، مهما كان حجمها ، وكيفما كان
محتواها ، يعمل على تدويرها على الجميع حتى يقرأها كل من له رغبة في
ذلك ، مع مراعاة المحافظة عليها وتأمين تنقلها بسرية . وقد يطول تداولها
أياما بل أسابيع. وقد يعيد قراءتها أحدها عشرات المرات ..

كان يفترض أن تأخذ القطعة التي حصلت عليها مسارا على تلك الشاكلة.
لكن الأمر لم يكن كذلك.لقد كانت كأنها رسالة موجهة إلي : « كلميم ،

استفحال الجريمة!« هكذا كان العنوان . أما المضمون ، فيتعلق بالعثور على جثة «الأستاذ الإمام-ع » ، ملقاة في أحـد الأرزقة ! كانت صدمتي قوية ، وكان تأثيري أعمق ما يكون التأثير . فالأستاذ المذكور كان أحد زملائي في المدرسة . وعرفته بعد ذلك في ثانوية «يوسف ابن تاشفين» بأكادير ، صديقا بشوشا وخلوقا يحظى باحترام الجميع . وكان معروفا بمهارته المتميزة في ممارسة لعبة كرة القدم ، حتى أنه بدأ يستقطب الإهتمام لدى بعض الفرق الكبرى آنذاك . إلا أن سلوكه عرف انكسارا مؤسفا غداة التحاقه بالجامعة بالرباط . ذلك أنه لجأ إلى معاشرة بعض رفقاء السوء ، فقادته تلك المعاشرة إلى دروب الانحراف والتهور ، ودمرت حياته بشكل مريع ، وكانت النتيجة ذاك المصير المفجع!

مزقت «رسالة الريح» ، و انزويت في ركنة من الغرفة بعد أن حكيت على الأصدقاء فحواها . وقلت للريح :

– لا شكرا ولا جزاء أيتها الريح! أتسخرين مني ؟ أهذا كل ما تودين إيصاله إلي؟؟ تمنيت لو تأتييني بما يثلج الصدر ويسقي العروق ، فإذا بك تجرحين الجراح وتحرقين الحروق! أم أنت نفس الريح الهوجاء التي رمت بي ومن معي في هذا الخضم المظلم الظالم ، ورمت «بالإمام» ومن معه في خضم آخر أشد ظلما وإظلاما ، فتاه في مهامه الضياع والخسران! ليته واصل التألق في مجال تلك اللعبة الجميلة ، فصار نجما من نجومها المتألئة . ليته لم يطرق باب الكلية ، بل ليته سجن وعذب ، ومات من أجل قضية !...

بعد طول قطيعة وهجران داماً بضع سنين ، أطل علينا «قمر القبطان» لأول مرة منذ عقاب الترحيل ، وما نجم عنه من بطش واضطهاد وتجويع . أطل علينا القمر بعد أن غيب الموت منا عدة شهداء . وكأن شيئا لم يقع : مجرد عملية تأنيب وتأديب ، لأن أحدا ارتكب «حماقة طائشة لا تحتل»، ولأن

قانون السجن يقضي أن يضرب على الجميع بيد من حديد ، حتى ولو لم تكن لأحد صلة بصاحب تلك الرسالة البائسة ! هم يطبقون مبدأ «الإستئصال من الجذور» ، ويعتمدون على سياسة «المسح الموسع» . فكانوا مثلا إذا تشاجر اثنان من السجناء (وقد يحدث ذلك نظرا للظروف الصعبة التي تؤثر على النفسيات وتضغط على الأعصاب) ، يقومون بمعاينة الطرفين كليهما ، دون السؤال عن أسباب الخلاف أو عن الجانب المخطئ . وقد تصل العقوبة أطرافا أخرى لمجرد أنها كانت حاضرة في عين المكان ساعة الحدث! وغالبا ما يكون الجزء أكبر بكثير من السبب : إذا دخل عليك «المفتشون» بغتة ، ووجدوا في حوزتك «نصف شفرة حلاقة» قديمة، فتوقع أن العقاب الذي سينزل بك أدهى وأمر مما تتصور!..

بدأ المسؤول دورته المألوفة على الغرف ، للتحقق من نجاعة خطة التأديب التي أخضع لها السجناء من جهة ، ولكن لإعطاء البرهان أيضا على «الصفح والغفران» ، وتجاوز مافات .. وبدا متفائلا بالمستقبل ، متفهما لكل المطالب كعادته ، دون التطرق إلى ما جرى في السنين الأخيرة ، ولو بالإشارة . وشرع للتو في إعطاء الأمر بفتح الأبواب طيلة النهار ، والسماح بالخروج الجماعي إلى الساحة . كما وعد بإعادة الكتب والسبورة والألواح ، ومستلزمات الشاي . وكان وعده صادقا ! بل سمح بإيفاد طبيب لفحص السجناء ومعالجتهم . كما سمح بتزويد المدخنين بالسجائر . ولو حظ تحسن واضح في مائدة الإطعام بعد تلك الزيارة . تنفس المعتقلون الصعداء ، وعادت إليهم الروح والأمل ، وانطلقوا في أشواط جديدة من المثاقفة والعمل الدؤوب في عالمهم الصغير . تشكلت الأقسام مرة أخرى ، وأعدت البرامج من طرف لجان التدريس . وبدأ العمل وفقا لاستعمالات الزمن ، وتوزعت الحصص طبقا «للساعة المائية» التي تنظم الوقت بالتكافؤ . وهي عبارة عن قنينة

بسعة لتر واحد ، اجري بها ثقب صغير في الأسفل ، تملأ بالماء عند بداية الحصة ، وتأخذ في التقطير ، لتكون نهاية الدرس عندما تصبح القنينة فارغة. وكان الحماس فائقا عند المعلمين مثلما هو عند المتعلمين . الكل مدفوع وراء رغبة قوية لتحقيق شيء ما ، حتى لا تمضي الشهور والأعوام كما أرادها السجانون : كئيبة ، عقيمة ، بلا جدوى ! الكل كان ضد الرضوخ والإستكانة ، رغم أن ثقل السنوات بدأ يكرس في النفوس إحساسا متزايدا بضيق الأفق والتباس الرؤية .. وبدا في الأسابيع الموالية أن زيارة النقيب الأخيرة كانت بمثابة «حجة الوداع» ، وأن ظهوره المتأخر بعد سنوات الجحيم ، لم يكن سوى استعداد لتسليم السلطة ، وفسح المجال أمام رئيس آخر ، يأخذ بزمام الأمور ، ويقود القافلة نحو هدف لا تزال دونه الكثير من العقبات ، والشعاب ، والصعاب ..

قناع صالح

وأخيرا ظهر القبطان البديل . رجل طويل القامة ، شديد بياض الوجه كتمثال الثلج. وقد زاده نصاعة وصول الطلائع الأولى من الغزو الأبيض إلى مشارف رأسه وشاربه . لم تبد عليه دهشة الدخول الأول على عالم الأحياء الأموات الذي كنا ننتمي إليه . ولم يتفاجأ بمنظر هياكل بشرية تلبس أسملا مرقعة ، كأنك في ضريح لأحد «الأولياء» وقد حج إليه الجياع والمتسولون من كل مكان ، طلبا لما يسد الرمق .

انطلق المسؤول مباشرة في حديث مفعم بالعواطف الجياشة . ومضى يرسل النصح الجميل ، ويجود بالموعظة الحسنة . وبدا أن لهذا الرجل شخصية أخرى ، غير التي عرفت لدى سلفه . فبقدر ما كان المتنقل كتوما متحفظا ، ينصت أكثر مما يتحدث ، جاء القادم ميالا للكلام إلى حد الثثرة ، شديد الاندفاع وراء مشاعره ، لا يتيح لمخاطبه فرصة الرد على ما يقول . يوحي أنه يرى ما في الضمائر ، ويقرأ ما بين السطور . فهو أستاذ ، وعالم ، وفقه . جاء ليقول لنا : « إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يوتكم خيرا. » وجاء ليقول في نفس الوقت إن قلبه مليء بالخير والإحسان . كل الدلائل أكدت أنه رجل صالح . و من باب الصدفة أن كان اسمه «صالحا». فقد شرع منذ البداية في إحداث تغييرات إيجابية على كل المستويات . تحسنت التغذية في الأيام القليلة الموالية بشكل لا يدع مجالا للشك . وازدانت «خزانتنا»

بمجموعة من الكتب الجديدة . كما حصلنا على دفعات من الملابس جعلتنا في غنى عن الترقيع ، بل مكنتنا من الحصول على أغلفة للألواح . وكان لذلك الإنفتاح الملحوظ أثر محمود على تصرفات الحراس ، مما أتاح لنا الحصول على مزيد من المكاسب . فأصبحنا مثلا نحصل على صناديق «الكرطون» الفارغة التي كانت تستغل في البداية خصيصا في مجال الكتابة . ولما تزايد العرض منها وتوافرت بكميات كافية بفضل «تكرم الحراس» علينا بالكرطون ، بدأت تظهر صناعات جديدة كصناعة الحقائب . وبرز في ذلك المجال عمال ماهرون ، يعتمدون على تقوية الصفائح بإصاقها ببعضها بواسطة الغراء المشتق من الدقيق المتوفر لدى النساء ، ثم تغشى الصفائح بأنواع الأقمشة الملونة . وكان من أهم الإنجازات التي حققها لنا القبطان صالح ، أن عمل على استقدام طبيب بات يقوم بزيارات شبه دورية للسجناء صحبة أحد مساعديه . بل أصبح بالإمكان نقل المرضى إلى مستشفى ورزازات متى دعت الضرورة إلى ذلك ..

مضت أشهر عدة ونحن في تعايش وانسجام مع مسؤولنا الذي عودنا على زيارته الميدانية ، وأحاديثه المفعمة بالعبر والدروس ، حتى جزمنا وأيقنا أنه «الإسم على المسمى» . وفجأة هبت الريح العاتية ، وسقط القناع الزائف ، فتغير مزاج الرجل بين عشية وضحاها ، وتحول «الولي الصالح» إلى وحش كاسر ، لا يتورع عن النطق بالألفاظ البذيئة أمام الجميع ، وكأنه يقصد أن يدمر كل حواجز الحشمة والحياء بين الآباء وأبنائهم ، والإخوة وإخوانهم ، وهو يعرف تماما أن بيننا أسرا بكاملها ، وأن الكثير منا تربطهم علاقات قرابة أو مصاهرة .. وأخذ المسؤول الشرس يثير في كل زيارة يقوم بها إلينا ، زوبعة من السب والشتم، ليتترك بعدها مجالا للحراس كي يعودوا إلى ممارساتهم المعهودة ، وهم الذين يتقنون مبدأ «الرعية على قلب الأمير»

.. دخل علينا أحدهم ذات مرة وبدأ يسأل :

– من كان منكم ينطق بعبارة «كاهاو»؟

أجبناه في تعجب أن أحدا لم يفه بهذه العبارة الغريبة . وأصر على السؤال بلغة التهديد. حاول بعضنا أن يطمئنه مؤكداً أن هذه الكلمة لا تعني شيئاً ، و قد يكون فحسب سمع عطسة أحد الشيوخ . لكن الحارس ظل متشبثاً بسؤاله الذي سرعان ما تحول إلى تهمة خطيرة :

– أنتم تبتكرون كلمات سر ترسلونها هكذا إلى النساء بجواركم !!

و بعد أن فند كل ردودنا وأثبت الجريمة علينا ، استشاط غضبه أخيراً ، ومضى يسب ويلعن ، و يضرب بعصاه الطويلة كل من جاء في طريقه ، و يركل ذات اليمين وذات الشمال ، مطلقاً العنان لكل ما «جادت به قريحته» من الأوصاف الساقطة والنعوت الحاطة بالكرامة ، حتى أخذ يلهث والعرق يتصبب من وجهه المحمر من الشرر . وانسحب في الأخير وهو يلقي علينا باللائمة لما حصل :

– أفسدتم علي صيامي هذا النهار يا أبناء الحرام !

(وكنا في شهر رمضان!).

اكتشفنا في ما بعد أن السبب في هذا التغير المفاجئ الحاصل في سلوك القبطان وحاشيته ، وصول مجموعة أخرى من المعتقلين الصحراويين! فقد تعودوا أن يعيدوا عقارب الساعة إلى الصفر كلما قدم زوار جدد . أصبحت كل أجنحة السجن مملوءة من المرتفقين الآن .

وفي أحد الأيام ، فتح الحارس باب جناحنا، وقد أمسك بيد شاب متوسط القامة ، أسمر اللون ، وسيم الوجه . وأخذ يقوده إلى أن وقفا أمام زنزانتنا . نادى الحارس على «محمد فاضل» وقال له :

– هل تعرف هذا ؟

فأجابه :

- نعم ، إنه أخي «محمد البشير».

- إنه سيبقى معكم من اليوم!

وما أن انصرف الرجل حتى هب السجناء من شتى الغرف يتسابقون لتحية محمد البشير . أخذ كل واحد يعانقه بحرارة ويشد على يديه ، ويسأله عن حاله . ولكن الشاب كان في شبه غياب : نظرة شاردة ، وكلمات خافتة ، وإجابات مبهمة . وكان يحرك أصابع يديه باستمرار ، بطريقة لا إرادية ، ويطلق في بعض الأحيان ضحكة غريبة لا تفتأ أن ينطفئ نورها لتحل مكانها سحابة من الحزن والكدر العميق . كان منظر الشاب في غاية المأساوية . وكان ينم عن عمق الكارثة التي حلت بأسرة «الليلى». أسرة زج بكل أفرادها ، من الأب ، إلى الأم ، إلى الأخ والأخت ، إلى الخال والعمة . حتى هذا الفتى الذي لم يكن عمره وقتها يتجاوز عشر سنوات ، هاهو يلحق بهم بعد اثني عشر عاما ، وقد قضى مدة طويلة مكبل اليدين والقدمين ، في زنزانة انفرادية ضيقة ومظلمة ، إلى أن جيء به إلى المجموعة وهو فاقد البال لا يكاد يدرك من هو ولا أين هو! حتى أبوه الشيخ الذي ضمه بحرارة تشي بعمق الشوق والحنين ، لم يجد في حضنه ذلك الدفء الذي يراه كل طفل يرتمي في صدر أبيه بعد طول حرمان . شعر الوالد المكوم بذلك الجفاء المرضي ، فتنهد من أعماقه ، واغرورقت عيناه وسالت منهما دمعة ساخنة على خده الشاحب ..

ولم تكن تلك الأسرة الوحيدة التي طالها بطش وتشريد . فقد سيقنت عائلات غيرها كثيرة إلى السجون ، ونالها ما يعز وصفه من أنواع القهر والتنكيل . فأسرة «عبد الصمد» مثلا زج بأبيها وأمها وابنتيها ، اللتين لم تكن إحداها تتعدى سن الرابعة عشرة . وكان من سوء حظ الفتاتين المسكينتين أن

عايشتا والدتهما «البتول» وهي تتأوه من فرط الألم ، وتصارع الموت من دون حبة دواء تخفف من أوجاعها ، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في ظروف شديدة الفظاعة . ولم تقف مأساة الأسرة عند هذا الحد . فقد شاءت الأقدار أن يلم المرض القاتل بالوالد بعد سنوات من العذاب ، لينادى على الفتاتين المسكينتين فتجدا أباهما جثة هامدة ، وقد نخره الداء ولم يترك منه إلا العظام ، فتلقيا عليه النظرة الأخيرة وتودعاه في مشهد إنساني مروع !... (أولا إنساني)

كثيرة إذن هي تلك الأسر التي كتب لها أن تمزق وتكون ضحية لسياسة حمقاء ، تلصق الإتهام بمن لا تهمة له ، وتأخذ بالذنب من لا ذنب له ، وتخطب خبط عشواء ليس لها بصر ولا بصيرة . وكثيرون أيضا هم الأشخاص الذين دارت عليهم الدوائر عينها ، فإذا هم يغرقون في وحل الإهمال واللامبالاة . إذا سمعتهم يحكون قصص القبض عليهم ، تخالهم يمزحون ، لكنه المزاح المغلف بالكآبة والسواد! فهذا أحدهم جاء لزيارة عمه بمدينة الطنطان قادما من العيون ، وصادف ذلك دخول الشرطة على منزل العم لاعتقاله ، فأرفقوه به قائلين :

– لا بأس أن تصحب عمك إلى المخفر حتى تعودا غدا معا!

فعاد الزائر بعد خمسة عشر عاما ، وأما العم فما عاد ولن يعود .. وآخر جاء هو أيضا إلى المدينة صدفه ، وقبض عليه صحبة خاله ، لكن مسؤول المفوضية ارتأى هذه المرة أن لا داعي إلى حبسه إذ لم يكن اسمه ضمن لائحة المطلوبين ، فأخلى سبيله . غير أنه رجع في اليوم الموالي بمحض إرادته ليطلب ساعته وقد أخذت منه بالأمس .
نصحوه أن ينسى الساعة وينجو بنفسه ، لكنه أصر على طلبه «المشروع» ، فبقي عشرات آلاف الساعات ، في انتظار الساعة !

وثالث قدم من فرنسا ، ومعه ابنه الطفل ذو السنوات الأربع ، قصد إقامة حفل ختان له على الطريقة التقليدية ، في جو عائلي حميم .
قبض عليه وغاب عن الأنظار . وبقي الطفل مشردا محروما من الدراسة .
ولم تستطع أمه الفرنسية أن تسترده وتأخذه إلى بلدها أمام تعنت أسرة الأب ، فتخلت عنه نهائيا وراحت لبناء حياة جديدة . وأما الرجل الذي خرج بعد خمسة عشر عاما معتوها نفسيا وجسديا ، فكان يعزو سبب اختطافه إلى كونه تحدث عن المسيرة بطريقة غير لائقة ، رغم أنه كان من أشد المتحمسين لها والمدافعين عنها ، بحيث صرح في إحدى جلسات الشاي أنها لم تكن سلمية تماما ، بل كانت مصحوبة بالقوة!..
ولم يكن المس من «قدسية» المسيرة قد جنى على شخص واحد . فهناك تلميذ تجرأ أن يقول إنها لم تكن خضراء بل سوداء! وقد ضبطت الحجة في حوزته بخط يده! إذا كان مصابا «بعمى الألوان»، فلا يجوز أن يكون ذلك على حساب المسيرة!..

ملك الظلام

ظلت الشهور والسنوات تمر علينا ببطء شديد . وبات أملنا في الخروج من هذا الجحيم يتضاءل مع مرور الزمن ، حتى تعودنا على حياة السجن ، وصار فكرنا حبيس دائرة ضيقة . لذلك انصب جل اهتمامنا على الدراسة والإنتاج الفني ، كرد فعل عاطفي على المعاناة ، إضافة إلى تتبع أخبار العالم ومجريات أحداثه المتسارعة .

كانت الحرب بين العراق وإيران من ابرز الوقائع التي ميزت تلك المرحلة من التاريخ . حرب مدمرة ، أزهدت خلالها الآلاف من الأرواح البشرية ، وتكبد فيها الجانبان من الخسائر مالا يحصى ولا يعد ...

ومن جهة أخرى ، بتنا نتتبع بانشغال لا يخلو من القلق ، تلك التحولات الجارية في ما كان يعرف آنذاك بالمعسكر الشرقي بزعامة «الاتحاد السوفياتي» .

بدأت الإرهابات الأولى لتلك التقلبات ، بجمهورية «بولندا» ، حيث ظهرت نقابة عمالية معارضة للنظام القائم ، في مفارقة غريبة من نوعها . كان المبدأ العام أن النظام الاشتراكي تأسس لأجل الطبقة العاملة ومن أجلها . وكان المفترض أن تشكل تلك الطبقة درعا واقيا لنظام جاء ليحرر الكادحين من سيطرة البورجوازية وعبودية رأس المال . لكن خلا ما، جعل جسم الاشتراكية يتصدع، ويتسرب الوهن إلى أعماقه كما تتسرب الهشاشة إلى العظام ..

ظلت العدوى تنتشر من دولة إلى أخرى ، عابرة الحدود والمسافات ، حتى بدأت تدق أبواب موسكو ، حيث أخذت دعائم «الكرملن» في الإهتزاز . ولعل غزو الروس «لأفغانستان» وتدخلهم المباشر هناك ، وتغييرهم لنظام الحكم ، وما نجم عن ذلك من حرب طاحنة مني فيها السوفيات بهزيمة نكراء ، لعل ذلك كان من العوامل الأساسية التي سرعت بالانهيار الكارثي «للصرح الأحمر»! حتى الصين لم تنج من تلك الرياح العاتية التي استطاعت أن تخترق «السور العظيم»!

تأججت نار الثورات الشعبية في تلك البلدان جميعها . وباتت الساحات والشوارع مسرحا للاعتصامات والمظاهرات المطالبة بالحرية والديمقراطية . ولم تجد التدخلات الأمنية بشتى وسائلها ، ولا الاعتقالات ، ولا حتى التصفيات الجسدية ، في وقف الزحف الجماهيري المتصاعد .

ووجد الغرب المتكالب فرصة سانحة للدفع بالأمور إلى الأسوأ ، من أجل القضاء على عدو بات يقض مضجعه ، ويهدد وجوده وكيانه . انقلبت الآية ، وأصبحت كفة الحرب الباردة ترجح لصالح قوى الإمبريالية والاستعمار ..!

ظل نخوفنا يتزايد ونحن نسمع عن أركان «حلف وارسو» وهي تتهاوى تحت وطأة الغليان المتعاضم ، ليس لأننا أصبحنا نخشى على أنفسنا من البقاء في «جزيرتنا المنسية»، بينما العالم منشغل بالتحويلات الكبرى ،ولكن لأننا صرنا تائهين وسط هذا الانقلاب في المفاهيم والمعطيات . ثم إننا أصبحنا قلقين على فقدان القوة التي ظلت بمثابة الحاضنة السياسية والفكرية لحركات التحرر ومقاومة الاستعمار . وكيف تلجأ الشعوب إلى من كان بالأمس يحتل أوطانها وينهب خيراتها ، ويدوس على كرامتها ، ويعيث في البلاد ظلما وفسادا ؟ أيقظ للغرب أن يتحدث عن الديمقراطية وحقوق الإنسان وحق الشعوب في تقرير مصيرها؟ أيقظ له ذلك بعد ما فعله في

أمريكا وفيتنام وفلسطين ، وإفريقيا شمالها وجنوبها ؟..
على أية حال ، هو وجد ضالته في تلك الشعارات ، وركب عليها لدغدغة
مشاعر الجماهير وتأليبها ، بعدما سئمت من واقع لم تحقق فيه السعادة
المنشودة .. «ورب ضارة نافعة» : فقد لقيت بعض الشعوب التواقة إلى
الحرية في تلك الظروف ، مناسبة لجلب الأنظار إليها ولفت انتباه العالم
لمعاناة ظل الغرب يتغاضى عنها لغاية في نفسه ..

كانت بلاد «جنوب إفريقيا» نموذجا صارخا للظلم والاستبداد الممارس على
الإنسان . كان هناك نظام متسلط يحكم بالنار والحديد على شعب محروم
حتى من إنسيته . نظام موغل في الإجرام والعنصرية البغيضة . خرج من
رحم الاستعمار ، ثم ترعرع في كنفه ، وتشبع بأفكاره وأساليبه . حكامه من
بقايا المحتلين الدخلاء ، الذين مكنت لهم السلطات الاستعمارية في الأرض
قبيل انسحابها . أسسوا هنالك كيانا من أبشع ما عرفه التاريخ الحديث ،
قائما على سحق الإنسان الإفريقي الأصيل ، وحرمانه من أبسط الحقوق ،
واعتباره أقرب إلى الحيوان منه إلى بني البشر !

ظل ذلك النظام المقيت يصول ويجول ، يسبح في بحر من الدماء البريئة
، ويرقد على ثروات الأوطان السليبية ، يمنحه الغرب في ذلك الحصانة
والحصانة ، دون الحديث عن المساواة والحرية وحقوق الإنسان! لم يكن
أمام الشعب المضطهد من خيار ، سوى الخوض في طريق المقاومة
والنضال ، من أجل انتزاع الحق المغتصب . وكان من بين مفجري تلك
الثورة العظيمة أحد أخلص أبناء إفريقيا ورموز عزتها وكبريائها ، الزعيم
«نلسن منديلا» . أخذ مكانه في الخط الأمامي منذ البداية ، حتى تم أسره
من طرف سلطات نظام «الأبارتايد» . وظل يغذي بأفكاره وصموده حماسة
الجماهير الملهبة ، من داخل زنزانتها الانفرادية . مضى عليه ربع قرن وهو

قابع في السجون ، دون أن يقبل المساومة ولا التفريط في قضيته . ولطالما راودوه بالحرية مقابل التخلي عن الكفاح ، فكان يفضل السجن عن حريتهم الزائفة وإغراءاتهم المهينة. كان نموذجا لكل الأحرار والمناضلين في العالم . أما نحن السجناء ، فكنا نتتبع أخباره بشوق كبير ، وكان يجسد لنا النبراس والقُدوة والمثل الأعلى . استلهمنا العزيمة من عزمته ، واستلهمنا القوة من قوته ، والصمود من صموده . وغدا نجما متوهجا يضيء سماء القابعين في الظلام ..

قفزت إذن قضية الشعب الإفريقي إلى الواجهة في خضم ذلك الطوفان الجارف ، وباتت أركان البيت العنصري تترنح آيلة للسقوط ، لما أصبح «مندلا» قاب قوسين أو أدنى من الخروج مظفرا منتصرا...

وماهي إلا شهور ، حتى تكسرت القيود ، وفتح باب ظل موصودا لسبعة وعشرين عاما ، فخرج منه بطل لا يخشى الظلام ، بل يراه ضروريا لمعرفة قيمة النور ...

ولم تكن مأساة فلسطين سوى نتيجة لمؤامرة إمبريالية صهيونية خبيثة ، حيكت خيوطها هنالك في بلاد الديمقراطية وحقوق الإنسان ، فأدت إلى ارتكاب مجازر فظيعة ضد شعب أعزل ، قتل وهجر من أرضه ، فغدا متشردا تائها في بقاع الدنيا . كانت مذبحة «دير ياسين» سنة ست وثلاثين من القرن الماضي ، مجرد بداية لمسلسل إجرامي لا ينتهي . فمنذ ذلك التاريخ ، باتت النكبات تلاحق الشعب الفلسطيني الجريح ، نكبة بعد نكبة بعد أخرى . ولم يسلم حتى في مخيمات اللجوء وفي بلدان الشتات ، كأنه لا يستحق أن يعيش إلا مطاردا منبوذا! وكانت مجزرة «صبرا وشاتيلا» آخر حلقات مسلسل التقتيل الدرامي التي بلغتنا آنذاك. اهتز لها الضمير العالمي وتألم ، لكن القوى المتآمرة لم تكن لترى الأمور إلا بعيون إسرائيلية . لذلك وفرت لها

الغطاء والحماية ، وتركتها تمر كما مرت سابقاتها من المذابح . غير أن الشعب الفلسطيني العظيم ، الذي تمرس بالصعاب واعتاد أن يلقي العالم دروسا في الصمود والإصرار ، انخرط في ذلك الزخم الجماهيري الكبير ، مبتكرا أسلوبا جديدا في المقاومة والتحدي ، عرف حينئذ « بانتفاضة أطفال الحجارة ». تلك الانتفاضة لقيت نجاحا باهرا ، وأربكت حسابات الصهاينة الغاشمين ، وجعلتهم يصابون بالهلع الشديد ، ويجبرون على السير مع التيار ، والتوجه إلى طريق التفاوض ، ولو بغدر الذئاب ومكر الثعالب ..

ولم تكن قضية الصحراء محل استثناء عما كان يجري في العالم . فبعد أن نقل المغرب الملف إلى المحفل الأممي ، عمل على تأكيد قبوله باستفتاء تقرير المصير تحت إشراف المنظومة الدولية ، طبقا للوائح المنصوص عليها بهذا الصدد . وعبر عن التزامه المسبق بنتائج الاقتراع المزمع إجراؤه . كما أكد استعداداه لعقد لقاءات مع جبهة البوليساريو من أجل الشروع في تهئ الأجزاء وإعداد الترتيبات . وكان لاستقبال الملك الحسن الثاني ثلاثة قياديين من الجبهة بالقصر الملكي بمراكش ، دور كبير في إطلاق مرحلة جديدة ، تنسجم مع روح المناخ السائد على المستوى الدولي . بيد أن المغرب كان قد شرع في السنوات الأخيرة ، في بناء جدار رملي عازل ، يفصل بين المناطق التي يسيطر عليها جيشه وتلك التي بقيت تحت نفوذ الجبهة . وذلك ما اعتبرته البوليساريو عملا منافيا للتوجه نحو السلام ، فكثفت من عملياتها لعرقلة تقدم الحزام الزاحف نحو الجنوب . فكان الجدار مسرعا لمعارك طاحنة بين الطرفين في سباق محموم مع زمن المراحل الأخيرة ، قبيل التصديق على وقف إطلاق النار ...

هب النسيم

بات العالم من حولنا في غليان ، كأنه مقبل على عهد جديد . وبتنا نرقبه من بعيد ، ونتأمل في مجريات أحداثه المتسارعة . ولعل التخوف الذي ظل يساورنا في البداية أخذ في التصرم ، خصوصا بعد لقاء مراكش . كانت الأعوام الأخيرة قاسية عسيرة . وكنا قد ودعنا كوكبة أخرى من الشهداء : «المحجوب المديميغ، الحبيب أحمد الحسن، الناجم أحمد الحسن، جدود الخليفة ...» ولما كانت أواخر الثمانينات ، بدأت تهب علينا النسائم العليلة . لم تستطع الأسوار أن توقفها ، ولا حالت دونها جبروت الحراس وطغيانهم . بل اخترقت كل الحواجز والأبواب الموصدة ، حتى نفذت إلى أعماق نفوسنا المتلهفة ، وغمرت أنفاسنا بنفحاتها المشحونة بأريج الورد ، في عاصمة الورد .. وإذا الأوضاع تتغير في لحظة ، وكأننا في حلم جميل : تحسنت ظروف المأكل والملبس ، وباتت أبواب الزنازن مفتوحة حتى وقت متأخر من الليل . وتحول الحراس إلى خراف وديعة ، بعد أن ظلوا ذئابا ضارية . وصاروا يتوددون للنزلاء ، كأنهم ما سبوا ، وما ضربوا وما أهانوا .. وسمح بتبادل الزيارات بين مختلف الأجنحة . ولم تعد مقصورة على العائلات فحسب ، ولم تعد مقيدة بأي شرط ، بعد أن كانت محدودة في عدد الزوار وفي زمن الزيارة ، الذي لم يكن يتعدى بعض الدقائق . وكان الجنود في ما مضى يعمدون إلى التضييق على الزوار ويقفون على رؤوسهم حتى تبقى

أحاديثهم خاضعة للرقابة اللصيقة . أصبحت اللقاءات تأخذ طابع الاحتفالية ، فيستقبل العواد بحفاوة فائقة ، تتخللها الهتافات والأناشيد والرقص ، وكؤوس الشاي ! لقد أصبح المعتقلون يشعرون باقتراب موعد الخلاص ، وقد لاحت بوارق الأمل هذه المرة ناصعة مشعة ، ولم تعد وهما متخيلا ولا سرايا كاذبا . أصبح السجن يغلي بالحركة الدائبة ، وكأننا في أحد تلك البلدان الثائرة شعوبها على الأنظمة المتداعية هنالك في الشرق! لم يعد السجناء يكثرثون بالجنود ولا بهراواتهم التي تحولت إلى حمائم بيضاء ، كما تحولت عصي سحرة فرعون ! والحراس أنفسهم باتوا مشدوهين منبهرين أمام هذا الواقع الجديد ، بعد أن ترسخت لديهم القناعة بكون السجناء مجرد حيوانات تخضع للترويض : يباح ضربها وتعذيبها والدوس عليها...

وبما ان القبطان «صالحا» لم يعد صالحا لظروف الزمان والمكان ، فقد انسحب من المشهد فجأة ، ليترك المجال لمسؤول جديد يدير شؤون المؤسسة بعقلية تتلاءم مع المرحلة الراهنة . ولكن من هو هذا المدير؟ إنه لم يكن سوى ذلك الملازم الذي كان يفرض أن يولي المعتقلون وجوههم إلى الحائط قبل أن يقوم بدورته الاعتيادية ، في أسلوب مبتكر منه ، يرمي من ورائه إلى تحطيم معنويات السجناء وتحقيرهم. وهو نفسه الذي اشرف على إجراءات النقل ليلة الثالث والعشرين من أكتوبر من «أكدر» إلى «قلعة مكونة»، تلك الليلة الفريدة من نوعها! وكان قد أعطى أوامره بقتل كل من يبدي حركة مهما كانت ، خلال الرحلة الجهنمية .. إنه لم يعد ملازما ، بل تدرج في السلم إلى رتبة رائد (كومندان) ! ولكن الرجل جاء بسياسة جديدة ، وبمنطق غير معهود . أتى ليلبي كل الطلبات ، وليمحو ما فات! لا شك أنه كان ذكيا ، وأنه كان نموذجا لرجل السلطة القوي ، الذي يملك قدرة

فائقة على الحربائية الماكرة . فقد تحول من ذلك الجلال المرعب ، الذي لا تعرف الرحمة طريقا إلى قلبه ، إلى رسول سلام ، وبشير إحسان ومودة . إنما الذي فات سيادة الرائد ، أن هؤلاء «الرعاة السذج» الذين يقضي جلهم أكثر من خمسة عشر عاما تحت الأرض ، مطلعون على دقائق ما يجري في العالم من أحداث وتطورات ، ومدركون لأسباب ظهوره بهذا الوجه الجديد .. مثلما كان هو و جهازه يبدعان و يتفنانان في أساليب العزل والتضييق و خنق الأنفاس ، كان السجناء يجتهدون في ابتكار وسائل لكسر الحصار ورفض سياسة الإبادة البطيئة ، وذلك بفتح نافذة على العالم تجعلهم أكثر إصرارا على التشبث بالحياة . فقد كان لاكتشاف «الناقة» أثر عظيم على نفوس المعتقلين . وكان لها دور أساسي في بعث الأمل لديهم وشحذ الهمم . ويجدر في هذا الصدد أن يعترف لقاطني «غرفة الناقة» بما قدموه من عطاء طيلة السنوات العشر التي قضيناها «بقلعة مكونة». فقد أبانوا عن انضباط رفيع ، وتحملوا مسؤولية جسيمة في سبيل توفير الظروف الملائمة لاستخلاص الأخبار . كانوا إذا أعطيت الإشارة لانطلاق النشرة ، يجمد كل واحد في مكانه ، ويحبس أنفاسه ، ولا يحرك ساكنا حتى تنتهي العملية التي قد تستغرق ساعة وأكثر . أما التنفيذ فكان يتكلف به أحد الأخوين - أحمد ومولاي - وهو في غاية الصعوبة : يقف على ساق واحدة ، ملتصقا بالحائط وأذنه مصوبة إلى ثقب لا يتجاوز قطره عين إبرة! ويستدعي منه ذلك أقصى درجات التركيز وإرهاف السمع ، لأن الصوت قد لا يكون عاليا بالقدر المطلوب ، كما أنه غالبا ما يتأثر بتشويش الحراس وهم يتحدثون في ما بينهم . ومع ذلك كان الأخوان ينقلان الأنباء بمهنية عالية ومصادقية كبيرة ... كان «الكومندان» يجهل كل هذا طبعاً ، ولو علمه لأبان عن وجهه الحقيقي مرة أخرى! لذلك جاء وهو يحاول أن يوهم هؤلاء الناس الذين

أساء إليهم بالأمس ، أنه إنما «لعن الشيطان» من تلقاء نفسه ، أما الدنيا فلا زالت على حالها!.. وعلى أية حال ، فالسجناء لم يعودوا معنيين بتقلبات الجنود ومسؤوليهم . فقد أضحوا يتطلعون إلى اليوم الذي سيعانقون فيه نور الحرية ويستنشقون هواءها . كم سيكون رائعا ذلك اليوم! وبقدر ما كانت العواطف الجياشة تتأجج في صدورهم ، بقدر ما أصبحت الأيام طويلة لا تنقضي . بل بتنا نعد الساعات والدقائق!...

لم تكن تلك المرحلة الانتقالية بالسهلة على نفسية السجين . صعب أن تكون ممزقا بين جسم ظل حبيس جدران أربعة سنين وسنين حتى ألف الظلام ، ولم تعد عيناه تقويان على رؤية النور، وفكر غدا محلقا في الأجواء كالعصفور ، طليقا يسابق السحاب ، ليحط في الأوكار بين الأحباب ، مغمورا بمشاعر الشوق والأباب .. بات جو التوتر والاستعجال طاغيا على النفوس ، إذ ضاقت درعا بمعاناة طالت عليها السنون . لذلك كان من شبه المستحيل الاستمرار في جو الدراسة على الطريقة الكلاسيكية ، أي بواسطة السبورة والألواح . ولما لم يكن متاحا التكهّن بالمدة التي ستمكثها المرحلة هذه ، وجب العمل على ضبط النفوس ، وعدم إضاعة الوقت في انتظار قد يطول وقد لا يطول . على ذلك الأساس ، تقرر انتهاز إستراتيجية جديدة تتماشى مع الظروف الحالي . تشكلت لجنة منتخبة ، أوكلت إليها مهمة تدبير الشأن المحلي وفقا للمتطلبات الآنية . تفرعت لجينات صغيرة عن تلك اللجنة . فتكلفت إحداها بالتنسيق مع المجموعات الأخرى وإعداد الترتيبات الخاصة باستقبال الزوار ، وأخرى أسندت إليها مهمة التنشيط الثقافي ، وثالثة تخصصت في الجانب الفني والترفيهي ..

وهكذا سطرت برامج للندوات الثقافية بدلا من الدروس المعتادة ، وأخرى للحفلات المسرحية والغنائية . وكان بعض الشبان تمكن من صنع آلات

موسيقية رائعة من أهمها القيثارات ، وكان من بيننا عازفون ماهرون ، وذوو أصوات شجية . فأصبحت اللقاءات بين مختلف الأجنحة تمر في جو من المتعة والإنصات لأجمل الأنغام وأروع الألحان ، من قلب ذلك السجن الرهيب! وبما أن الرائد ذهب إلى أبعد الحدود في إعطاء كل الأضواء الخضراء ، فقد فتح باب الانتقال من جناح إلى آخر . وانتهاز المعتقلون تلك الفرصة ، فعملوا على إجراء نوع من إعادة الانتشار المحدودة ، تراعى فيها احتياجات مختلف المجموعات في ما يتعلق بعناصر الفن والثقافة وغيرها . وفي ذلك احتياط وتحسب لطائرات الزمن : فمن يدري ؟ قد يحدث حادث ، ويطرأ نكوص في الأوضاع ، وتنقطع الصلة بين الأجنحة وبعضها ، فنكون على الأقل حصلنا على تحقيق نوع من التوازن بتوزيع القدرات في مجالي التعليم والإبداع ..

نهاية الكابوس

تعاقبت في تلك الآونة لجان تابعة لوزارة الداخلية . بدأت تقوم بمراجعة لوائح المعتقلين الأحياء وتدقيقها . فكانت تستدعي السجناء كلا على انفراد ، وتستفسرهم عن أسمائهم الكاملة وعناوين سكنهم ، وأماكن اختطافهم ، وتسأل عن معلومات مختلفة أخرى . وكانت تختتم تلك الاستمارة بسؤال يتعلق بماهية المطالب التي يود الشخص أن يتقدم بها إلى الدوائر المسؤولة . وفي ذلك توجيه مغلف ورغبة في الإيعاز إليهم بتقديم طلبات العفو إلى الجهات الرسمية . بل حاول بعض المسؤولين المحليين العمل على نشر تلك الفكرة بين السجناء ، متظاهرا بإبداء النصح الجميل وإعطاء الرأي السديد . لكن المعتقلين رفضوا أن تنطلي عليهم تلك الحيلة ، وعملوا على إبطال مفعولها ، محذرين بعضهم أن العفو لا يطلبه إلا من ارتكب جرما يستحق العقاب . أما نحن فلا ينطبق هذا الأمر علينا ، بل إن كل الأجرام ارتكبت ضدنا : اختطفنا ، وعذبنا وحرمنا من المحاكمة ومن المعاملة اللائقة ، وعزلنا في مخابئ سرية ، ومنعنا من الاتصال بذوينا ، وجردنا من كل الحقوق . وبعد كل هذا ، وبعد مضي خمسة عشر عاما ، يعرض علينا طلب العفو؟!..

وفي أحد الأيام ، وفيم نحن غارقون في أنشطتنا اليومية ، دخل علينا الحراس ، وهم يحملون جهاز تلفاز كبير ، وأخذوا يثبتونه في إحدى الغرف !

أمر لا يصدق ، ولم نكن نتصوره حتى في أحلامنا المكبوتة ! تجمع الجميع أمام الشاشة منتظرين . و إذا بهم يركبون شريط «فيديو» ، و يشعلون الجهاز ، فيظهر الملك الحسن الثاني وهو يستقبل مجموعة من شيوخ الصحراء . ويتقدم أحدهم ليأخذ في إلقاء كلمة استعطاف واستجداء بين يدي الملك ، يطلب من خلالها العفو عن المعتقلين . وما كان جوابه إلا أن قال إنه موافق تماما ، وإنهم لو سألوه قبل هذا لكان عفا عنهم! هل كان يجب أن ننتظر كل هذا الزمن حتى يأتي هؤلاء « الوجهاء » ليطالبوا العفو عنا ؟ مهما يكن من أمر هذا السيناريو ، فالذي يهمنا نحن ، أنه بمثابة إعلان رسمي عن الإفراج عنا ، ومن أعلى سلطة في البلاد . قرار لا يقبل الجدل ، ولا يقبل التأخير! لقد أصبحنا إذن أحرارا طلقاء! كيف نتحكم في تلك الفرحة العارمة؟ يا لها من لحظة عظيمة !..

جاءوا في اليوم التالي بملابس جديدة . أخذ كل واحد يبحث عن ثياب على مقاسه . ومن غريب الصدف أن كان من نصيبي جلباب أحمر ، تماما مثل ذاك الذي دخلت به إلى عالم الظلم والظلام، والذي قضى نحبه هناك ، بعد أن تنقل بين عدة أشخاص ، وأصابه ما أصابهم من ألم وحرمان وتآكل .. وكأن قدرا ساخرا يقول لي : «ها نحن عوضناك عن جلبابك!»، وكأنني لم أفقد سوى الجلباب في رحلة العذاب!..

انتظروا حتى جن الليل ، فبدأوا عملية النقل كما دأبوا على ذلك . ركبنا الشاحنات في هدوء واطمئنان، غير مكتوفي الأيدي ولا معصوبي الأعين! وتحركت القافلة تشق الطريق ، تاركة خلفها قلعة الموت الرهيبة كالوحش العظيم يرقد في الظلام ، وكأنها تتسلل في هدوء مخافة أن يستفيق مذعورا ، فينقض عليها من جديد ويغرز فيها مخابله وأنيابه !.. لم تدم الرحلة طويلا كما كنا نتوقع : فقد توقفنا بمدينة ورزازات ، و بدأ أننا سنقيم

بأحد فنادقها الفاخرة . هكذا دخلنا إلى الدنيا من بابها الواسع ! غرف فارغة لا علاقة لها بزنازن « مكونة » البائسة ، مزينة بأثاث جميل ، وأسرة مريحة ، وحمامات دافئة ، وحدائق مزخرفة بأنواع الورد . أما قاعة الأكل فتجد بها ما لذ وطاب! والرائد يتجول بيننا كالقط السمين ، يداعب هذا ، ويربت على ذاك ، ويضحك ملء شذقيه للآخر دون عياء ولا حياة!..

وفي الأيام القليلة الموالية ، بدأت الحافلات تتوافد على الفندق لتتنقل كل يوم مجموعة في اتجاه العيون . لم يبق بعد حوالي أسبوع إلا فرقة مكونة من عشرين فردا تقريبا . فتوقف مجيء الحافلة فجأة ، وممرت عدة أيام دون أن نعرف ما الأمر ، وما السبب !حتى الرائد الحنون اختفى عنا ولم يظهر له أثر! ما الذي جرى حتى تعطل القطار يا ترى؟ هل حدث طارئ جعلهم يتراجعون في قرارهم ويوقفون إجلاء ضحاياهم ؟ هل نجا المحظوظون بأنفسهم وبقي التعساء المنحوسون؟ هكذا طفق التوجس والريبة يتسربان إلى النفوس السقيمة، وقد تعودت على الصدمات المخيفة والعودة إلى الورااء!..

بعد أيام من الانتظار المهين والقلق المؤرق، وصلت الحافلة أخيرا! لكن الجو السائد لم يكن يوحى بأن الأمر طبيعي . فقد كان الفتور يخيم على معاملة الأفراد القلائل، الذين بقوا من الحراس في مصاحبتنا وقد نزعوا بذل القمع، وباتوا يختبئون في لباس مدني، كأنهم مجرد نوادل تابعين للفندق . ولما أخذنا أماكننا داخل الحافلة وهمت بالإقلاع، سألنا المرافق الوحيد الذي صعد معنا ، عن الوجهة التي نحن آخذوها، فأجابنا بتردد ظاهر: « ربما الرباط! ». الرباط؟! بعد أن اعتقدنا أن مسلسل المعاناة قد أشرف على النهاية ، واننا تخلصنا أخيرا من عذاب الأعصاب، ها نحن نعود مرة أخرى إلى مرحلة مجهولة المعالم ، ونوجه وجهة غير التي نريدها! أخذ اليأس

والتذمر منا مأخذاً عميقاً ، وبتنا نمج هؤلاء الذين يقررون فينا ما يشاؤون ،
غير آبهين بما يسببون لنا من ألم وتوتر!

كان الليل قد أرحى سدوله لما انطلقت بنا الحافلة من ورزازات . بعد ساعات
طويلة من المسير ، أصبحنا على مشارف مدينة الرباط ، وقد تفتحت عيون
الصباح ، وبدأت الحركة تدب في شوارعها الفسيحة . عرجت الحافلة نحو
اليمين مودعة الطريق السيار القادم من الدار البيضاء، ولم تفتأ أن ولجت
بوابة المركب الرياضي « الأمير مولاي عبد الله . » وإذا بنا نخط أمام فندق
داخل المركب يحمل اسم «فندق الأبطال» . لا شك أنه مخصص لإيواء
الأبطال الرياضيين. ولكن ، أي رياضة كنا نمارسها نحن حتى نخوض غمار
السباق مع أبطالها؟ لربما هي رياضة الصبر على الأذى ، وتحمل الآلام
والذل والحرمان في سبيل البقاء قيد الحياة؟..

قضينا بضعة أيام في ذلك الفندق دون أن يزورنا أحد من المسؤولين ،
ودون أن يشرح لنا أي كان ماذا نفعل وإلى متى نحن هنا . ونزلاء الفندق من
الرياضيين لم يكونوا يشعرون حتى بوجودنا ، رغم أن حضورنا بينهم كان
يشكل لوحة «كاريكاتورية» غريبة! ولكنهم كانوا منهمكين في تداريبهم
واستعداداتهم لحصد الميداليات! إلا بطلة جزائرية تنبهرت لأمرنا وتعرفت
علينا وأخذت تزورنا من حين لآخر، بعد أن اطلعت على حكايتنا الطويلة ...
نحن لم نكن ندري أشرا يريدون بنا أم خيرا في تلك الوضعية الغامضة .
بل كنا نرجح الاحتمال الأسوأ ، نظرا لغياب أي معطى من شأنه أن يبعث
على الثقة والإطمئنان . لذلك ارتأينا أن نتخذ بعض الاحتياطات بإعطاء البطلة
لائحة بأسمائنا ، حتى إذا تم إخفاؤها من جديد ، تكلفت هي بإبلاغ الرأي
العام أننا مررنا من هناك ...

وفي أحد الأيام ، وبينما كنا نستعد لتناول طعام الغداء ، دخلت علينا

مجموعة من العمال الصحراويين ، يتقدمهم أحد كبار المسؤولين في جهاز المخابرات . أخذ المسؤول الكبير يلقي خطابا ظاهره العفو والتسامح ، وباطنه التهديد والوعيد. تحدث عن اندحار الشيوعية وأنصارها وأتباعها ، وأهاب بالحاضرين أن يتخلوا عن الأفكار التي يحملونها، إذ لم تعد صالحة لشيء وانقضى زمنها ! ثم نبه إلى أن عيون الدولة مفتوحة دائما ، و أن يدها ستبقى طويلة ، و ستمتد إلى كل من سولت له شياطينه التناول على مؤسساتها وثوابتها .. وتعاقب بعض العمال يتحدثون في ذات السياق ويبدون النصح والإرشاد . ثم تكلم بعض المعتقلين ، فalcوا الضوء على ما مورس ضدهم من أفعال شنيعة ، وعلى المدة الطويلة التي سلبت من حياتهم بدون وجه حق ، مطالبين بإنصافهم ورد الاعتبار إليهم ...

انفض الجمع ، وبدأنا نشد الرحال إلى الديار . كانت النفوس تتحرق من الشوق والحنين إلى لقاء مع الأهل والأحبة ، كان حلما يراودنا طوال تلك السنين ، وبتنا نمني النفوس بتحقيقه في يوم من الأيام ..

غير أن أسئلة محرجة ظلت معلقة في القلوب ، بدأت تطرح نفسها بالحاح : « ترى كيف هم الآباء والإخوة والأصدقاء؟ من بقي منهم في الحياة ومن غادر هذه الدنيا البائسة؟ ».. ظلت تلك الهواجس والأشجان تعوق اكتمال فرحتنا وتزيد من توترنا ، ونحن نتأرجح بين الخوف والرجاء ، والحافلة تطوي الأرض طيا ، سائرة نحو الجنوب ..

كانت شمس صباح الفاتح من يوليو من سنة إحدى وتسعين ، تشرئب من وراء الجبال ونحن داخلون إلى مدينة «كلميم». أحسست بفرحة هائلة تغمرني لما بدأت الحافلة تعبر الشارع الرئيسي ، إذ تقاطرت الذكريات وعادت بي إلى الأيام الجميلة، حيث كان اللهو واللعب، وأحلام الصبا وتطلعات الشباب .. وبعد توقف لبضع دقائق كان لي فيها حديث رقيق مع

البلدة الرائعة ، التي أخذت حيزا واسعا من القلب والوجدان ، واصلت القافلة رحلتها في اتجاه العيون. وظلت العيون شاخصة إليها والقلوب راعشة، حتى كانت الساعة الثانية زوالا، حيث وصلنا نقطة النهاية! وإذا جموع الأهل والأصحاب يحتشدون في مشهد فائق الروعة . استقبلنا بالأحضان ، وكان العناق حارا بقدر ما كان الفراق طويلا مريرا . وامتزج الضحك بالبكاء ، واختلطت المشاعر والأحاسيس، حتى أصيب البعض بالذهول وبات يسأل نفسه : « هل نحن في حلم أم هي الحقيقة؟ »!

مضت أيام عديدة تبدت لنا فيها الدنيا مزينة بألوان الورد. بدا الأمر وكأن كل الآمال تحققت في لحظة واحدة! كيف لا ونحن قضينا آلاف الليالي في ظلام دامس ، لا يظهر فيها القمر ، ولا يصلنا نسيم الصباح ، ولا نرى الأفق ، ولا يحق لنا الكلام إلا بصوت خافت ، ولا نعامل إلا كما تعامل أحقر الكائنات ، محشورين مع القمل والجردان! ! صحونا إذن من الكابوس المفزع ، وفتحنا أعيننا على الكون الفسيح ، وظننا أنها السعادة كلها ، وأن كل شيء جميل . لكن سرعان ما تبدد الوهم الكبير ، ليبرز الواقع مرا علقما ، وتبرز الحياة موحشة مقفرة! فإذا نحن تركنا الشباب وراء ظهورنا ، وضاع منا ربيع العمر بأزهاره وثماره . تجاوزتنا فرص الدراسة والعمل ، وبتنا عاجزين عن اللحاق بركب مر مسرعا ، لا ينظر إلى الخلف ، ولا ينتظر من تخلف . والسلطات التي رمت بنا في هذا الخضم المتلاطمة أمواجه لم يكفها ذلك ، بل ظلت تلاحقنا كالظل في كل مكان ، متمادية في زرع الأشواك من حولنا ، ونصب الفزاعات والأضاليل ، حتى تنكر الأقارب والأصدقاء ، سوى بعض الأوفياء المخلصين . وغدا الواحد منا مبعث شؤم ونفور على محيطه ، يشار إليه بالأصبع أينما حل ، مثل ذلك الطفل المسكين الذي حكى عنه إحدى الروايات العالمية ، لم يكن له من ذنب سوى أنه صار يتيما ولم تعد له أم تأخذه إلى

حضرها لتحميه من أيادي الشر ، فكادت له الذئاب البشرية - لغاية في نفسها
- مكيدة جعلته منبوذا بين أقرانه ، إذ كتبوا على ظهره : « احذروه ، إنه
يعض! » فصار الأطفال يفرون من حوله وينفرون مرددين :
- احذروه ، إنه يعض !...!

الجزء الثالث

بوح الجراح

هذه مجموعة من المحاولات الشعرية كنت قد أنجزتها إبان الاعتقال و لولا تلك الظروف القاهرة و المعاناة المريعة ، لما كنت تطلعت على الفن المنظوم . و في الحقيقة ، لم أكن أعتبرها سوى مجرد إفرازات لمشاعر الغبن و الإحساس بالقهر و الحرمان ، و تمرد على الممارسات المشينة التي كنا ضحيتها طيلة تلك السنوات .

أمل أن يرقى بعضها - إن لم تكن كلها - إلى درجة الشعر الملتزم ، و إلا فأرجو من معشر الشعراء أن يعذروني على الجراءة ، و يغفروا لي أن كنت في حالة من الهذيان...

في سجن أكدر

من واقع موجد للقلب والكبد !
بالجوع ، والمرض الفتاك والنكد
كأنه للأسى مستودع أبدي !
قد لفها صدأ في الليل دون غد
قد آثرت نومها بالجوع والممدد
ترجو هواء وراء الباب لم يرد
والسأم في دمه نار ، وفي الخلد
قد أتقنوا لغة الكلام بالعمد
ما حول أعزل غير الصبر و الجلد
يبكي بصب الدموع عين متئد
تحفها الكدمات السود بالعقد
و الشعر صبغته السواد لم يعد
"أمواتنا بعثوا - عجا ! - من اللحد"
طوى ذويها الذي يبدو على الجسد
يؤذي ضئيل دم للقوت مفقد
حتى تسيء إلى الأرواح بالأمد
موت الفطاعة لا ينال من أحد!
سخطا على ما حوت في هذه البلد
عل النحيب يهيب محنة الولد!

يا للتعاسة ، والشقاء والكمد
في سجن عار يموت الأبرياء به
صاغت ليالي الأسى جدرانه فجعا
والعيش فيه حثالة تعد قرى
تأبى الكلاب عروجا صوب ركنتها
في كل زنزانة تجمعت نفر
ملقون في الزمهرير القاتل ازدحموا
إن يشتكوا ألما لقوا زبانية
وسبهم عزلا بالقهر قد غلبوا
أضناهم البؤس فاستحال حالهم
تورمت منهم الأطراف موجعة
والجسم قد نحت منهم بقيته
إن يخرجوا للفناء يزحفون تقل :
أثوابهم رقعت كأن ألم بها
و القمل يتخذ الأسمال قاعدة
و الموت يترك للآلام مهلتها
فيختم النتن والإسهال شقوتهم
قد جاز للأرض أن تهتز غاضبة
و لتبك كل حنون منذ أن وضعت

نذير في السعير

إذا انبلج الصبح يا قملتي !
لسوف تؤدين بالجملة
أمارق قلبك من حالتي ؟
و ما زدت طينا سوى بلة !
يخلصني من بكا مقلّة
علي ، و أن تندبي علتي
و تجمعنا وحدة الرحلة
جميل المودة في سلة
نها عند باب مخيلتي
و أنواع هم ، فما حيلتي ؟
عن الأهل و الصحب و الخلّة
علي بريئا بلا زلّة
لقدحان صحوك من غفلة !!

عدمت الأظافر إن تفلتي
دعيك تنامين ربي دما
أما كنت تخشين وخز النهي ؟
دمي امتصت الخطب أوفره
فأليت أن تحرميني كرى
و كان بودك أن تشفقي
و نحن كلانا غريب مشى
و لكنك اخترت أن تهملني
غياهب ليلي تبدت جنو
تذيق فؤادي صنوف الضنا
جرى دمع عيني لطول النوى
فتبا لشر جنت يده
زمان العذاب تنبه ، كفى

مومن المظلوم

جاروا عليك فما رقوا ولا اتزنوا
و دوا لو ابتكروا الأعذار، بل أذنوا
يا كادحا عضت الأيام غرته
ما أنت ممن أتوا بأسا به سجنوا
براءة القلب في عينيك صارخة
و القول يدعمها ، و الفعل مقترن !
تصارع الفاقة الهوجاء في نصب
رحالة في الفلاة ، خانك الزمن !
ما ظنك الأرض دارت حول محورها
يوما ، و لا حول شمس جريها مرن
شرط الحياة التي أقحمت غمرتها
خبز له مورد في الغابة الثمن
ماذا جنت راحتك إذ تمزقتا ؟
و الوجه سوده الإملاق و الشجن !
و الظالمون رموك في زنازتهم
حتى طواك الردى ، تبا لهم ، لعنوا !
فأين يمضي جياح بعدك اغتربوا
و أنزلت بهم الأهوال والمحن ؟
و طفلة بقيت في السوق حائرة
من حيث قد خطفوك ، سرهم علن !
لم يبذل لائمة هناك من حضروا
كأنهم ما رأوا سطوا و لا فطنوا !

ما بال عين السماء لم تبين شزرا
أم مالها ، ويحها ، عين ولا أذن ؟
والأرض ما هالها وضع تبوء به
والظلم فيها مقيم ، راقه السكن !
ليس الغريب الذي قد بان موطنه
إن الغريب الذي في أرضه دخن !

حبيبتي وردة حمراء

حبيبتي وردة حمراء ، حمراء
حبيبتي ذات سحر الخد ، فـراء !
تفتقت بكرة في مهجتي ، فشفى
حلولها مهجة أودى بها الـداء
ما كنت أدرك كنها للهوى ، أسفا
كم ضاع من عمري و الحب نعماء !
أضحيت أنسي بها ما كان من شجني
يا ما تضيق من الأشجان حوباء !
بهيجة وردتي ، والعطر تبعثه
و في لذاذتها للخمر أسماء
كالشمس إذ حزن الوداع أودعها
زي الوداعة لا تضويه أزياء !
كأنها البدر لما كان مطلععه
فيه الوقار ، و فيه السحر لألاء !
كالنار ليلة قدر توجت علما
هديا لمن هو في الإدلاج مشاء
الحب يا وردتي حسبي فكل دمي
أهديه في الحب لو يرضيك إهداء !
ماذا يضر إذا أنضبت واديه
في ما يزينك ؟ و المحب معطاء !
ليس الشهيد الذي يموت من شغف
بل الشهيد له في الحب إحياء !!

القنديل المنتحر

الغيم ، و الديجور ، والضجر
و الهول ، و الأشباح تنتشر
في وحشتي ، سوداء مروعة
تمشي على عيني ، فتنفجر !
بالدمع ، كالبركان تقذفه
يعلو ، فيهوي ثم ينكسر
فوق الأديم الغث تلذعني
أشلاؤه ، وكأنها الجمر !
و الليل دارت بي عباءته
دهماء ، و القنديل منتحر
أهذي بخل حبه على مـ
في خاطري ، و الرسم مندثر
حاكت عليه العنكبوت خيـا
ما رثة ، و نسيجها قـذر
إذ فرقت بيني و طلعتـه
ست من السنوات تعتبر
تمشي سلحفاة على مهـل
قد عاقها في سيرها الوعر !
فتسارع الأشواق تمخرني
و تواصل الدمعات تنهمر
و أحس أن القلب مرتعش
فأخال أن الروح تحتضر

إن تنقطع غيبوتي ، عجباً !
لاح اصفرار كان يستتـر
لما أصدقني أرى قبساً
إلا إذا الأشباح قد هجـروا !
و إذا المنى تختال عائدة
و إذا الدجى ، فرسانه اندحروا !
"مرحى و أهلاً بالبشير بدا
كيف الخليل - أقول - يا قمر ؟"
أهدى إلي الحلو صورته
و أجاب : "كن بالروض تنتظر
فهناك سوف يكون مواعده
معك الصباح ، و سوف يعتذر!"

أو تذكرين؟

أو تذكرين البئر والمستنقع ؟
و لقاءنا من غير أن نتوقع ———
و الشمس همت أن تزيع خمارها
لتبين سافرة أديما أنصع ———
و نزعت عنك الثوب ثم رميته
فرمى به شيخ الأئمة ، هل وعى ؟!
فتكت به ساق يحير حسنهما
و رشاقة ، و النهدي طاب و أينع !
فتورط المسكين يجحد شيبه
و تكلف الإخاء ، ثم تصنع ———
و خطوات في سامي الوقار تحديا
و وثبت كالسهم العظيم تضوع !
سباحة في الماء تخترقينه
غواصة ، أتممت فيه تضلعا ———
و مليحة ، و الحسن خير مزية
لا أرتجي لسواك أن أتطالع ——— !
و وثبت خلفك و الحنين يهزني
فتعانقت أشواقنا ، و سرت معنا !
ما أعظم الصدقات حين تقدمت
بلقائنا ، و الحظ حين تبهرع !
و اليوم إذ مرت على عهد اللقا
ء سنو فراق ، و الأسى قد رجع

أفلا ترين بأن نعد لموعـد
بمدينة الأحلام كي نتمتـع
بحلاوة الأيام بعض شبابنا
يأبى الشباب بأن يفوت مضيـعـا

إلهام

ربابة صوتك الساري تهادت
إلى أذني ، رائحة الرنين !
و عطرك يملأ الأنفاس مني
و طيفك لا يزال أمام عيني
كأنما ما تجرعنا التناثري
كأنك ، ساعة لم تبرحيني
كأن لم يدلهم علي ليلى
و لم تصغ النجوم إلى أنيني
فساءلت الدجى : " ما خطب هذا؟ "
و خبرها لواعج نار بيني
إذا نذفت جراح القيد مني
و قفت بجانبني لتضمديني
رأيت يديك تمتدان صوبي
لتأخذني يداك و تكلئيني
فأسقط من أواني واشتياقي
على شفتيك أنهل من معيني
و أسجد في خشوع لا يضاهي
لأطبع منك واسطة الجبين
فتجمع وجنتاك الورد طرا
و تبتسمين بسمه ياسمين
فتنقشع الهواجس في خيالي
و تحتشد البشائر في يقيني !

لكم أنست في عينيك سحرا
غدوت أرومه فغوت سفيني !
و تاه بنا دليل الحب تيهـا
على ألا يعود بنا لحيـن
و ماذا في الوجود سوى حبيب
يهام به و ينطق بالحنين ؟
فكيف تنال من شغفي قيود؟
ألا إن القيود لفي جنـون !!

ضيف الفردوس

بروحك طافت غيد حور كواعب
كحيلات أطراف ، لهن حواجب
رقيقة شكل زينتهن رسمها
على الصفحات البيض ، و الفحم كاتب
يمطن شفاها عن بنات لـدرة
و يهززن أردافا ملاحا تغالجب
خطاهن وقع ، و اختيال منمق
و يجررن شعرا للحضيض يصاحب
تبعثره النسومات عند هبوبها
كطفل لأهداب الحرير يلاعجب
فتبرز أعناق تشع ملاحـة
تخال سيوفا بالرقاب تطالجب
و طفن بك الفردوس عبر رحابها
يرينك ما يزهو و ما هو طائب
حدائق من عذب الفواكه زينة
وأنهار خمر ، و الكؤوس كواجب
و روح وريحان ، و ورد مفتـح
و ظل ظليل لا يراه مشاغـب
و بشت زرابي ، خللت بزخارف
بديعة ألوان ، بدت تتجاذب
ترى الشهداء الغر والهور حولهم
يمرون أفواجا ، ونعم المواكب !

تحيي ظباء في المروج جموعكم
و أنغام طير ، في الغصون مرحاب
فمنزلة الفردوس أنتم قطينها
و من غيركم في الناس أهل مواظب ؟
أيطمع رهبان حلولا بأرضها ؟
و ما بذل الرهبان جهدا يناسب !
أضاعوا سنيهم في الدعاء تقربا
و ما عرفوا لله كيف التقارب !
لأن صحيح الزهد زهد مناضل
تراه بأيام الشباب متاعب
فيخرق أخطار الزمان بجأشه
ليسقط مغوارا فتيا يحارب
و إلا فلأسوار يترك جلده
و ما خلفه طيف الضمير يعاتب
فحمدي ، سلام من رفيق مبجل
عليك ، و إنني في اللقاء لراغب !

وداعا أيها القمر!

يا باعثا بالفؤاد بذرة الشغف
هل يختفي وجهك اللألاء ، يا أسفي!
هل تترك القلب للأسى يمزقه؟
وتنثني هكذا ، من بعد منعطف!
أديمك الغض هذا بات يلهمني
ذكرى غرام محاه الوجد من صحفي
وأذبلت زهرة السراء نائبة
جاءت بها يد حال تافه الصدف
تلك التي طوحت بي ريح نقيمتها
وقيدتنني عن الإلحاق بالهدف
فصرت لا حول لي ، منهار أجنحة
أمشي وأحمل اوزارا على كتفي!
أتيه خائرة قواي من تعب
وأسأل الغيب عونا ، فائض اللف
فلا يجيب عن التعويل منطق
و الغيب يشغله الإغراق في الترف!
ورحت أسأل نفسي حملها جلدا
و الصبر مفتاح خير ، كان في السلف..
لما تطلعت يا قمير في أفق
هبت جنون الأسى توا لمنصرف
أبديت طلعتك الغراء باسم
كأنها تحفة تسمو عن التحف

أحييت في مهجتي أشواق مرحلة
قد كنت أحرقتها بالحب في سـرف
رجعت أمتصها كالطفل أصبعه
يعطيه لذة طعم غير مختـلف !
والآن إذ أنت عازم على سفر
سلم على الربع والمحـبوب من طرفي
بلغهما أنني بالرغم من عطبي
لسوف أبقى لعهدي حافظا ، و وفي!..

عفوا

عفوا إذا انزلقت يدي بيراعي
فمضت ترتب حرثها بقطاع
وتسوق للطرف القصي "حمارها"
لتعود تنشد موعد الإقلاع !
حتى اذا أتت النهاية ساعة
خلت سبيل مطية لمراع
وأتى الحصاد زمانه فبدا لكم
أن المناجل عثرت بصراع
مع يابس الأعشاب غير محبذ
ترك السنابل عرضة لضياع
ما كنت معتمدا يدي لضلالة
أوريشتي لتشد عن إجماع
لكن ، قد امتلكت زمام طموحنا
جبروت سيدة طويلة باع
تملي القوافي لا تهاب تقولا
و تقول لا لتستر وخداع !
سخرت من الفكر العتيق وهمها
لقواعد العلم الحديث تداع
وأثار نقمتها تجرؤ "سادة"
زعموا دراية ما وراء قناع
فتظاهروا بالغيب علم أموره
ليبالغوا في نهب رزق جياع !

أبت اعتناق مبادئ الحزب الذي
سمح النخاسة في ربوع بقاع
ليدنس الإنسان عرض أخ له
وأبت إباحة ما يقال أباحه
عرف الجدود من احتواء متاع
في الأرض من طرف الأمير وآله
"وذوي السعادة" سادة الإقطاع
وأدانت الطرف الذي جعل الفتا
ة بضاعة ، للعدل غير مراعاة
ومضت تقرض جنسها بدفاعها
عن حقه في النفع أي دفاع !
وتقول : "ما فاق الرجال فريقنا
أبدا بمقدرة على الإبداع !
لكنهم حكموا عليه بعزلة
ما كان يفرضها لعمري داع ! "
فبحقها سلبت حجابي برقة
وهويت قدرتها على الإقناع !

مع شجيرة المشمش

كيف آلت للبؤس تلك الرشيقة
بعد أيام في الحياة الطليقة
بين ظهرانينا تخوض كبنت
دللت عند أهلها بطريقة
ربحت في الضراء ألف حنان
و بما أن كانت بدون شقيقة
مامن الابتسام غير بهاها
و الإسار المشؤوم يحكم ضيقه
أورقت في براءة الطفل ظلنا
أنها في النعيم كانت عريقة
فترامت غصونها في ازدهاء
توجتها البراعم المستفيدة
والعصافير أنست كل أمن
فاعتلت هاتيك الفروع الرقيقة
جعلت منها ناديا للملاهي
و روت أشعار الوجود ، نسيقة
إنما ديدن الزمان جفاء
كيف تبديل سنة أو خليفة ؟
جردتها صراصر عاتيات
من فساتين السندسي الأنيقة
فغدت هيكلًا يهول هزالا
لقنته المأساة درسا عميقة
قلت لما رأيته في اكتئاب :
"بعض صبر، لا تحزني، أي رفيقة !

فخریف الحسان مثلك یمضی
 و خریفی لا ، لن یغیب دقیقة !
 أوصلته الآلام قبل أو ان
 فجرى فی ذقنی یشق طریقہ
 بعد أن أرسى بالفؤاد قروحا
 یمستحیل اندمالها فی الحقیقة !
 لکن اخترت أن أكون صبوراً
 فأجاری وسط الجیم حریقہ
 ورضیت الحظ الذی کان حظی
 و أبیت عینی دمعها أن تریقہ
 أفتأسین من سحابة صیف ؟
 کیف لو كنت فی الشقاء غریقة ؟
 فلسوف الربیع یأتي قریباً
 ها أذیم السماء بیدي بریقہ
 والبسی فیہ أنت أبهى قشیب
 و أنا حسبی فی هناء صدیقہ
 لا تقولی إن التملی عار
 بین أسوار سامقات عتیقة
 هل رأیت الورد الجمیل عبوساً
 بأئسا یخفی عطره ورحیقہ ؟
 أولم ینم الورد بین قبور
 دون أن یقلی طعمه من أذیقہ ؟
 و دعینی لأنقش اسمی یوماً
 قبل بین کیمما یكون وثیقہ
 فوق تلك الساق التي سوف تغدو
 ساق أم عمیدة لحدیقة
 لیری الناس اننا قد سمعنا
 و عصینا طیر الردی ونعیقہ !

قهر الزمان

من جراح التشريد صاغ الحماس
شعب عز أبى الهوان لباسا
مذ تحراره الانجليز فحاكوا
من خبايا العدوان مالن يواسى
ملا الأرض من صده صليل
و سقاهم من فائر الغيظ كاسا
وارى الإمبريال أ لا سلام
و الروابي تشكو إليه مساسا
لم يذر في السماء مأمّن عاد
يرتجي للنجاة فيها التماسا
ولتقل تلکم البحار قليلا
كم جراها يقطع الأنفاس!
حطم الرقم في الفداء وأعطى
في الفداء النموذج النبـراس!
وأذاق الدخيل طعم اضطراب
كيف ينسى الدخيل أو يتناسى؟
لم تزده المؤامرات سوى ما
زادت الريح النار فيها انطماسا
في فلسطين يا خليل نضال
لم يجد في سفر النضال قياسا!
وبها شعب لقن الدهر إصرًا
را وحزما ، وهمة ، ومراسا

نطق الحق باسمه صارخا في
وجه ظلم فسنه الإخراس !
وأثار انتباه من كان يسلو
عن تدابير من تولى وساس
فصحت من عمق السبات عيون
لم تكن - لولاه - استفاقت نعاسا
وإذ اليوم يشعل الأرض نارا
حير الجن هولها والناس
يعرض الصدر للرصاص ويشدو
للمنايا ، تحرك الأجراس
قد رأيت السماء تبدي خشوعا
و رأيت الزمان طأطأ راسا !!

المولد العظيم

عزز الأوتار الشجية نايًا
واحذ بالطبل حذوه ، مولاي !
واعزف الأنغام البديعة لحنا
واحك من أشعار الحماسة آيا
ولتكن بهجة النفوس لدينا
صورتها بالرقص غر الصبايا
وزغاريد الفرح توشي قرانا
برصاص الفتیان فوق المطايا
احتفاء بمولد طالما قد
جسد الشعب حبه بالمنايا
وأصرت من أجله أمهات
بعطايا الأكباد ، نعم العطايا !
ليس غروا إصباح صبح خلاص
كان ، ما كان من قبيل الهدايا !
هذه الرايات التي قد تسامت
رفعتها في الغيب أيدي الضحايا
قد سمعنا الأصوات منهم تنادي
و تحيي الأحياء أزكى التحايا
وتقيم الصلاة بالقدس حينًا
و تداني تلك الربى والثنايا !
يا فلسطين أي باق تبقى ؟
إن تقضت بالنصر أم القضايا !

و الليالي تنفست صعداء
بعدما عانت بؤسها في الخبايا
وبكت من مأساة أمة نبل
دنستها بالمكر سود النوايا
فتحلى الشعب العظيم قنوعا
بالسجيا أكرم بها من سجيا !
وجراح التنكيل لم تثن فيه
من صمود في وجه داهي البلايا
بل مضى حتى أركع الدهر قهرا
فارضا بالتصميم خير المزايا
وقعتها الأرباب ضمن قضاء
و حكاها التاريخ ضمن الحكايا !..

على شاشة السماء

عبير نسمة ذكرى
يحول الليل فجرا
يرضى بها القفر قطرا
والشمس ترسل شعرا
كأنه شعر شقرا (ء)
وأسلمته ليسرى
فأومض العنق يعرى !
أسرا ، وأمخر بحرا
بالفلك أنشد وكرا
أزهى الأمانى وأمرى !
والروح أشرف قدرا
وسرت أمسك خصرا
والشوق يمنع جهرا
في الأفق تنثر جمرا
كأن بالكون أمرا !
أوفات عمر ومر !
كيف الحقيقة تدري ؟
أو ريح غاز أضر
للحزن ينصب جسرا
والليل أسدل سترا !
يعطي النهاية أمرا
إلى الزنازن جرا !
درعا بما كان عسرا
ثلاثة ثم عشرا
"صبرا فصبرا صبرا!"..

ذاق الفؤاد فأطرى
تبسمت كضياء
كذرة من رذاذ
لما وقفت عشا
منعما ذهبيا
مالت به الريح يمنى
وناثرتة أخيرا
رايتني أتخطى
وفي هنالك أرسو
لطالما ذقت فيه
شريحة القدر جنبى
عانقتها ملء صدري
ورأسها عند رأسي
تأججت منه نار
واللهب يصعد منها
لم تمض إلا ثوان
لست الحقيقة أدري
... وانتابت النار صب
آلت إلى حزن فحم
قد ودعنا ذكاء
وجاء حارس سجن
قال "ادخلوا قد كفاكم
أويت والنفس ضاقت
أعد أعوام بؤس
وأمنح النصح نفسي :

قالت لأختها

مثل هذا الذي حبتك الليالي !
يتهادى في طيفك المختال !
أنجبت من حرائر كالآلي !
شبه القرد فجأة! بالغزال !
أتراها الأضواء مثل الظلال!
هي كانت محل تزيين حال ؟
غير رثم تفردت بالجمال !
وغدت أحجارا عديمة بال !
فتصير الأحجار ذات جلال !
علقت بالغصون فجر اكتمال !
كاعب ، كالورود بين التلال !
بظلام كونا فسيح المجال !
ضاحكا عند ذلك الإطلال !
لم تزال تروينها ، لم تزال !
زدت إلا بعاذر مع خالي
ما انتظرناك في الليالي الطوال
أتحرى سمع الصوى بالسؤال
باكتئابي ، ووحشتي وانشغالي
من عسير المسير عبر الرمال
و تعالي يا أخت عندي ، تعالي !

أي سحر أبهى ، وأي دلال ؟
يا لسعد الزمان لما أتانا
رب أزمان قد تولت سدى ما
إن تعد الإناث طرا حسانا
لا ، ورب السماء لسن سواء
هذه الحلبي أنت زينتها أم
لو فرضنا إلقاءها لم تكوني
وهي إن فارقتك زال سناها
تزرعين الروح الجليلة فيها
يا لها من جواهر كثمار
يا لها من قلائد فوق صدر
شعرك الفاحم الحيري غطى
والمحيا بدر أطل وحيى
هذه في عينيك صورة أمني
وأنا ، هل عرفتنى ؟ عنك ما قد
أقرئي يا أختاه عبر عيوني
أقرئي ما مشيت في درب يتمي
علنى ألقى ناظريك فألقى
ستكونين قد لقيت عناء
فامكثي حتى تأخذي مستراحا

قتامة

فراقكم سام العيون سهادا
وحول فيهن البياض سوادا
يرين لتبسام الورود سماجة
و يلبسن أبهى الكائنات حدادا
فما نضبت وديانهن هنيهة
ولا أخدمت نارا تذيب الفـؤاد
عكفت على الذكرى ألوك قشورها
فما زاد منها الشوق إلا اشتدادا
وهل في اجترار الذكريات تملص
من البعد والتنكيل ، والقهر سادا؟
تحيط بي الأسوار من كل جانب
و تمتد في بعد السماء امتدادا
ولا نبأ يرنو إلي بصيصه
يحدثني عنكم فينعش زادا
من الأمل المكنون أخشى نفاده
و من أي زاد لا نخاف نفادا ؟
وهذي السنون الحالكات مروها
مرارته ظلت شريطا معادا
تصرفها كف البخيل كأنه
يودع أموالا ، ويرثي ودادا

فيغمر بالتقبيل وجه نقوده
و يذكر أياما له ، "والجهاد!"
ألا ليت أعوام الفراق أعيشها
كما عاش أهل الكهف ردحا رقادا
أنام ولا أصحو سوى باحتضانكم
ويا حبذا حضن يعيد ازديادا
لبذرة نبت بات جدب يميتها
فعانقها ماء يجر سmada!

قصة العروس السمراء

خريدة تزدهي في الدر والحلل
سمراء تفتننا بالغنج والكحل
و الثغر بسمته للبدر مخجلة
يأيها البدر ، إن الشمس في خجل
و وجه كحلة إذ تبدو شحوبته
فتلكم الغيرة الحمقاء من كحل!
قالت لذاكرة التاريخ تسعفها :
" أنا التي صعدت روعي إلى المثل !
أنا التي طالما السلطان راودني
بالفسق في طعم النبيذ والعسل
و مد لي يده الحمراء راجفة
يشكو التهيم والغرام في وجل
فما اغتررت بما يدعوه من ولع
و قد يبيت مكر الناس بالحيل !
أدركت أن لود الذئب علقه
إذا يبين صفات الود للحمل
فما عشقت سوى أحداق عنترتي
لما دعاني للوصال في أجل
و غاب يقصد نار الحرب يأمرها :
يا نار عمي على العداة واشتعلي!"
إنني لعنترة المغوار واعدة
لبيك يا فارس الفرسان ، يا بطلي!"..

...ومرت السنوات الكثر قاسية

من دون أن تذعن السمراء للمل

ظلت على عهدها في الحب تحفظه

في لوح مهجتها المحفوظ من خلل

... وجاء صاحبها من طول غيبته

جذلان، أعينه تشع بالأمل

فأطلقت ملء فيها صوت زغردة

تلقي بها وسط وابل من القبل

و ضمها في عناق طال طائله

تحكي حرارته مرارة العذل

فأذرفت دموعات الفرحة غادتنا

و أسلمت قلبها للحب في كسل

غنت لعرسهما الأمواج هادرة

بما تقص على الشيطان من زجل

وساقت الريح ألعنا تجود بها

رواقص الشجر المياس في الدغل

سار العريسان في أرض مودة

لا يحفلان بها من شدة الجذل

و الغانيات الظباء سرن خلفهما

في موكب ، ياله من موكب جليل !

يونس الجديد

قبة الكون تحلت بقشيب
رائع في زرقة ، صاف ، عجيب!
ما رأت عيناى صفوا مثل هذا
كصفاء الخمر في كأس الحبيب !
سحبت عنها النسيمات سحبا
بعد أن باتت تغني في الهبوب
مثما يسحب شعر عن محيا
سحره يمسح أحزان القلوب
وتبدت شمس صبح اليوم ترقى
و تسوق النور في خطو رتيب
بسمت للصبح لما غازلتها
همسات الصبح في ود الأديب
و تحاكت بينها الألوان تزهو
و تباهي خضرة السهل الرحيب
و تغنى الطير في الأغصان يطري
نغم الشحرور شدو العندليب
حيرتني بهجة الأشياء هذي
و تساءلت عن الأمر المريب
و تفرست حوالى مليا
علني أكشف عن سر الوجوب

لم أزل في حيرتي حتى دعاني
صوت داع في الكواليس مجيب :
"أيها السائل ، إن السر آت
من تخوم الأرض ، في أقصى الجنوب
كل شيء ينشد العيد سويا
عيد ميلاد نبي في القريب
ليس يعني الأمر في المهد صبيا
إنه يحمل أعباء المشيب
عمره سبعون عاما مع نيف
عبرة يأخذها كل لبيب
وقضى منها الثلاثين تباعا
في دياجى بطن ثعبان رهيب
وقضاها يخلص الدين لرب
قد حباه العلم في ردع الخطوب
واسمه "نلسن" وقد جاء يسوي
أزمة الثورة في عصر غريب
لعبت فيه الجماهير بنار
ثم ضلت في متاهات الدروب
حين أغوتها الشياطين بسحر
ليس إلا ، تحته ألف لهيب !
وجرت خلف سراب سوف يلقي
بضحاياها إلى القفر العصيب
فسلام الله والناس جميعا
وتحيات على القطب المنيب !.."

خطوط في تراب

جلس العم حسين في وقـار
جلسة الراسخ في علم الطواري
يرتدي دراعة من أرض عاج
و لثاما حلزونى المـدار
ذقنه أنبت عشباً ذا بياض
ناصر ينبئ عن طول مسار
وأديم الشيخ أضى كبلاد
سكنت أودية فيها المجاري
قنعت عينيه نظارة عجز
طمست أحداقه خلف ستار
وضع العكاز يغفو عن يمين
وحذاء فاقعا عند اليسار
جلد كبش تحته كان فراشا
اصطفاه العم عن كل فـخار
وأمام الشيخ صحن فيه رمل
جلب الأسرار من همس البحار
مسح الأرض وسواها بكف
وتلا آيات ذكر واعتبار
وجرت سبابة العم بوحى
من إله السحر في تلك الصحاري
لم تقف إلا إذا الصحن مليء

برموز كذبت حنكة قـاري!

رفع الرأس وأدلى في هدوء:

”أتحدى كل من جاء يـمـاري!

علمتني ذي الليالي أن علمي

ليس نطقا عن هوى أو بخوار

هذه عاتية هبت قريبا

هي زلزال عظيم فحذار!

غيظها يقتلع الأشجار عنفا

ويرد الفوق تحتا لـديـار!

إن يكن بيتك هشاً فسلاماً!

كان أجدى أن تظل الدهر عار!

ولسوف الأرض تشكو من جفاف

قد يطول العهد ردحا بأوار!

إنما ، من بعد وبل ، فربيع

فأياب لانتعاش وازدهار..”

جمع التربة في صرة زاد

و مضى يحمل أوزار الجواري..

في مملكة "نلسن منديلا"

لم يهتم بالصعاب	خاب سعي لمن
طعمها كالرضاب	خدمة للوطن
فتحرى العذاب	رب هاو فتن
أم إلى اليأس راح؟	هل "نلسن" جنون
خاملا في سراح	إذ أبى أن يكون
في انتظار الصباح	وانزوى بالسجون
عدها في وثاق	عشرات السنين
يعبد الانعتاق	صامدا لا يلين
عزمه لا يطاق!	بالتزام الأمين
يُد رب الأسى	توجت رأسه
ملكا ما أساء(ء)	فاعتلى عرشه
معجب إن قسا !	والدجى حوله
والتحدي البعيد	يا مليك الصمود
عند حبل الوريد	لك فينا وجود
وقيود الحديد !	ما وعاه الجنود

من ضحايا الظلام	فإليك الولا(ء)
لعدة السلام	جسدته القلى
تحت بطش الحمام	وجميل البلا(ء)
أقسموا بالسياط	إن حماة السعير
"لن يهون الرباط	والجدار الكبير:
عبر سم الخياط!"	أو يفوت البعير
منبعا للأمل	اتخذنا الجدار
سائغا كالعسل	فوجدنا المرار
من جدار حصل	إذ قرأنا المسار
من أداة الغسيل	وصنعنا اليراع
حاذقا بالدليل	فغدا كل راع
لا يريد البديل!	همه الإطلاع
رغم زهد السلاح	ونواسي المريض
وغذاء يتاح	بحنان يفيض
بيننا أو يزاح!	والى أن يئىض
في وداع الشهيد	لا نريق الدموع
فيه كل يجيد	بل بحفل يروع
ويغني النشيد:	فيبين الخشوع
لم يهم بالصعاب	خاب سعي لمن
طعمها كالرضاب	خدمة للوطن
فتحرى العذاب!	رب هاو فتن

الملف الأسود

تاريخنا المشهود ، نحن البشر
تملؤه الأجرام ، هل تغتفر؟
أجراننا والشمس لم تمحها
لواحة في عينها والقمر
أما سكوت الأرض عن واقع
رفق بنا ، والأم لا تختبر!

هتليز آلى أن يبيد اليهود
فكرس الهم لها والجهود
والأمركان أنزلوا قبله
ظلمنا وعدوانا بحمر الجلود
من دون أن يقترفوا زلة
إلا لأنهم ضعاف،هنود!

وفي هروشيما فقد جربوا
صنعا تراه العين، لا تطرب!
تنقلها أم، ويعطى أب
يأخذها الأبناء يا للأسى
ليس لهم عن أخذها مهرب!

واقصد بإفريقيا جنوبا ترى
يعطى لجلد كل حرية
وهو أصيل قبله موطننا
وهو سليل مثله للثرى!

أما فلسطين فهلا درى
شعب بها ما ذنبه يا ترى
إذ منعوا أطفالها والنساء
قهرا، من العيش بتلك القرى
كي يسكن الصهيون من بعدهم
ما أتفه الحل، ومن دبر!!

أولى بنا يا قوم أن نفهم
فهما صحيحا واقعا أظلم
فالجوع يرسو، جاثما حولنا
و نحن نحتال لغزو السماء!
كم بائس مفترش للثرى
و فوقه سقف حوى أنجما!

وامرأة قد فقدت إلفها
أطفالها تجرهم خلفها
تسعى لتسأل الورى رأفة
لم تجن رأفة ولا نصفها!
والناس تترى، ولا واخز
ما أتفه الإنسان، ما أتفه!!

لقاء الإخاء

بعزة أمي ، واليمين كبيـر
لأهـلا وسهـلا ، مرحبا يا بشير!
أما قد تلاقينا بدرب غمائم
و كنا على درب النضال نسير
وفرقت الأيدي الأثيمة بيننا
سنين طوالا، والإسار المريع
و ذي "قلعة" الأحزان عادت بكرة
فما هي إلا جنـة و حريـر!
يرصعها الورد البديع بزخرف
و ينفـح من ذات الـورود عبير
يحيي لسان الحال منه إـخاءكم
و يجزم : "أنتم بالإخاء جدير!"
إخاء لئن ما أنجبته أمومة
فأنجبـه ذاك الجوار العسير
و أيام كنا والكبول تمضنا
و كنا ، كلانا في الظلام أسير
و نختلس الهمس المحرم عندهم
فيفعمه الود الكثير الكثير!
و ما برحاء الأسر كانت تسوونا
و لا همنا في الأسر إلا مصير
يقرره الشعب العظيم بثورة
تبارك منها في المصير ظهير!

لائحة باسماء شهداء أگذر و قلعة مكوته

- 1- حبوب - ميليد - سيدي علي
- 2- بناصر - حمدناه
- 3- محمد سعيد - عبيد - شعبان
- 4- بيري - مبارك - حسينة
- 5- الديه - المحجوب
- 6- ابراهيم - بوزيد - الحبيب
- 7- محمد مبارك - سيدي مولود
- 8- محمد الامين - حمى
- 9- الشيخ - البشير - حمادي
- 10- حمدي - بوزيد - الرباني
- 11- أحمد - البشير - شرامها
- 12- خطاري - حبيدي
- 13- نافع - عبد الله - ميارة
- 14- النعجة - علي - برهمى
- 15- علوة - الطاهر - نجيب
- 16- محمد ماء العينين - العروسي
- 17- البلال - الحبيب - البلال
- 18- مومن - حمدناه
- 19- عياد - محمد - الضميري
- 20- عبيد - السهيلي
- 21- بوبا - علي - الكوري
- 22- البتول - سيدي - سيدي علي

- 23- الهيبة - عمر - ميارة
- 24- المهدي - أحمد - بارا
- 25- الجيد - محمود - كركوب
- 26- شيفالي - مكيا
- 27- سلامة - علي - ابا الحسن
- 28- محمد الشيخ - محمد سالم - البخاري
- 29- أحمد - سويلم - الترفاس
- 30- السالك - عبد الصمد - بولسان
- 31- محمد - بدا
- 32- سداتي - لكواري
- 33- الحبيب - أحمد الحسن
- 34- المحجوب - المديميغ
- 35- الناجم - أحمد الحسن
- 36- عبد العالي - بوسلهام
- 37- محمد الحبيب - الونات - المسيتي
- 38- السالك - عبد الله - سليكة
- 39- محمد - عبد الله - منيصير
- 40- محمد - سيدي العروسي - الفقيه
- 41- الداهي - الناجم - يحيا
- 42- الناجم بيدي
- 43- جدود - خليفة - سكيحيل



علمنا إذن أننا في «قلعة مكونة» ، عاصمة الورد! ما هذه المفارقة ؟
أيحق لبلدة تحتضن حدائق الورد البديعة ، وتستقطب عشاق الجمال من كل
أصقاع الدنيا ، أن تخبئ في ثناياها سجنًا يذاق فيه بنو البشر العسف
و التنكيل ، ويموتون بالجوع والمرض والإهمال ؟ هل يجوز للباشاعة أن تكون
مغلقة بالوان السحر والبهاء ؟...

العزلة أصبحت القاعدة السائدة في الوضع الجديد . ولم يعد الاتصال
بين مختلف الزنازن ممكنا ، إلا بواسطة إشارات خاطفة خلال مرور الأشخاص
بالقرب من النوافذ ، عند خروجهم مجموعة مجموعة بالتناوب . وعادت المعاملة
القبيحة من طرف الحراس الخمسة ، الذين أصبحوا ينكلون بالسجناء
و يذيقونهم أصناف القمع والتعسف كل يوم . ولطالما تربصوا الفرص لينظموا
هجمة مباغتة على إحدى الزنازن ، زاعمين أنهم ضبطوا أحد الأفراد أثناء
محاولته الإتصال مع غرفة أخرى ، فيلحقوا به أشد العقاب لخرقه القانون
المقدس! وفي الحقيقة ، هم لا يحتاجون إلى ذرائع يسوقونها حتى يفعلوا ما
يفعلون : فهل ساق الذئب يوما حجة على الغنم ؟..